الفصل الرابع

السعوديون والركن الخامس

الوقفة الأولى

الاستعداد للموسم

بعد أن يمنَّ الله على المسلمين بموسم الصيام، وإكمال شهر رمضان المبارك، صيامًا لمن وفَّقه الله لصيامه، وقيامًا لمن وفَّقه الله تعالى لقيامه، ونفقة لمن وفَّقه الله تعالى للإنفاق، يخرج المسلمون من هذا الموسم العظيم إلى موسمٍ آخرَ عظيمٍ مثله، فذاك كان الركن الرابع من أركان الإسلام، وندخل في موسم الركن الخامس، والحجّ أشهر معلومات، وقال علماؤنا الأفاضل إنها ثلاثة أشهر، هي شوال وذو القعدة وذو الحجّة.

بعد الصيام تبدأ وفود الحجّيج تفد إلى بقاعٍ مقدَّسة، هي محلُّ عناية كل المسلمين ورعايتهم، هي في أفئدتهم أغلى عليهم من بيوتهم، فهي بيوت الله تعالى. أرأيتم أننا في هذه البلاد المباركة نعيش خصوصية، قد لا تتوافر لكل بلاد المسلمين، ومن باب أولى لكل بلاد العالم. فنحن في هذه البلاد ندخل هذا الموسم بالإعداد والترتيب والتنظيم والإنشاء والتعمير طيلة العام، لا تقتصر على أشهر الحجّ، بل ربَّما كانت هذه الأشهر الثلاثة لتنفيذ الخطط، والخروج بموسم ناجح على جميع الصُعُد.

إذا كنا لا نباشر التخطيط أو التنفيذ فإنك ترانا – أحيانًا – أكثر اندفاعًا من أولئك الذين يباشرون التخطيط والتنفيذ، أقول

اندفاعًا، لا حماسًا، فلسنا أكثر منهم حماسًا، فمنهم متحمِّسون – دون شك – أكثر منا؛ لأن المهمة – بالدرجة الأولى – مهمَّتهم، هم مسؤولون عنها أمام الله تعالى، ثم أمام وليِّ الأمر الذي وضع فيهم ثقته، وسلَّمهم سمعة هذه البلاد في مجال الحجّ المتجدِّد، فلهم من الله العون والتوفيق، ولهم منا الدعاء بالسداد، وكلمات لا بدَّ منها نشعرهم بها أننا معهم قلبًا، وإن لم نكن معهم قالبًا.

هم، وإن كانوا، مكلَّفين بهذا العمل، فهو شرف لهم جميعًا، أن يخدموا عباد الله القادمين، يتطلَّعون إلى رحمة الله تعالى في أدائهم هذا النُّسك، والمسؤولون يدركون أمام هذا الكمِّ الهائل من عباد الله أن جهودًا غير عادية ستبذل، لاستيعاب هذه الجموع، مختلفة اللغات والعادات المحلية والتقاليد الموروثة، والمستويات المختلفة، في الوعي والإدراك والفهم والعلم، ولذا كان لابد أن تكون هناك منغِّصات على الطريق، يتعامل معها المسؤولون بروح من الأريحية المطلوبة، في هذا الزمان من العام، وفي هذا المكان من العالم.

نتجاوز جميعًا هذه المنغِّصات؛ لأنها غير طبيعية، ولا تعكس صورةً حقيقية للمسلمين، ولكنها تذكِّرنا دائمًا أننا نتعامل مع البشر، هؤلاء الذين أقسم الشيطان بعزة الله ليُغوينهم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين. ولذا، وعندما نقف على ممارسات لا تليق بشرف الزمان والمكان فإننا نتفهَّمها، ونتَّخذ حيالها الإجراء الصارم، ولكنها لا تقلِّل من حماسنا، ولا تغفل الجهود التي تبذل في سبيل رعاية حجّاج بيت الله تعالى وخدمتهم، رغبةً في الثواب من الله تعالى لكل أولئك الذين حملوا الأمانة.

إنني هنا ألمح إلى أعداد محدودة تصل إلينا بتأشيرة الحجّ، ولكنها تسيء إلى نفسها، وتسيء إلى الحجّ، عندما تستغلُّه، إما بمدِّ يد الشحاذة، وإما بمدِّ يد "النشَّالة". وكلما وجدت أمامها إجراءات صارمة فإنها تقل – بإذن الله – ولكن وليس من باب التشاؤم أو التقليل من الجهود، فإنه لا ينتظر لها أن تزول تمامًا، ولكن المؤمَّل أن تحاصر في أضيق نطاق. وهذا هو الممكن المنتظر.

ثم إذا ظهر تقصير من بعض الأفراد، المؤتمنين على الرعاية والخدمة، فإنما هو لأنهم بشر، يعتريهم ما يعتري غيرهم، وقد يكونون يتعاملون مع أجهزة، أو آلات، أو أدوات دقيقة، تخونهم في اللحظة الحرجة. ومع عدم السكوت على الإهمال إن حصل، فإن المسؤول العام يتفهَّم أن مثل هذا قد تحصُل فيه المساءلة، ويكون فيه التفهُّم في آن واحد.

تلك كانت رسالة أخوية لأخ كريم نبيل شرَّفه الله تعالى بخدمة ضيوف الله تعالى، فرأيناه طيلة العام وهو يتَّخذ السبل الكفيلة لخدمة ضيوف الرحمن، من خلال عمله الدائب في الداخل والخارج.

* * *

الوقفة الثانية

خصوصية المكان

من شعائرنا الإسلامية، التي حيَّرت كثيرًا من المهتمين، من غير المسلمين، هذه الشعيرة المباركة، الركن الخامس من أركان الإسلام، الحجّ لمن استطاع إليه سبيلًا. وكثيرًا ما رغب هؤلاء المهتمُّون من غير المسلمين في الاطلاع المباشر على هذه الشعيرة المباركة، ولكن المشاعر المقدسة في مكّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة محظورة على غير المسلمين، ولذا نجد أن عددًا منهم سعوا إلى الدخول إليها، بإعلان إسلامهم، وتغيير أسمائهم من الأجنبية إلى العربية، ثم دخلوا مع الأدلاَّء، وتعرَّفوا منهم على المناسك والمشاعر، ثم سجَّلوها في كتب لا يزال كثيرٌ منها في لغاتها، ولم تنقل إلى اللغة العربية.[١]

من القليل الذي نقل إلى اللغة العربية، بالترجمة، كتاب المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورخرونيه الذي قام النادي الأدبي بمكّة المكرَّمة بنشر الجزء الثاني منه،[٢] وتريَّث في نشر

---

(١) انظر: يحيى حسين وزيري. أمُّ القرى: خصوصية المكان والعمران. – الرياض: المجلة العربية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. – ٣٢ ص. – (سلسلة كتيِّب المجلة العربية؛ ١٠٢).

(٢) ك. سنوك هورخرونيه. صفحات من تاريخ مكّة المكرَّمة في نهاية القرن =

الجزء الأوَّل، لما حواه من مغالطات متوقَّعة من "عبد الغفار" أو الحاجّ عبدالغفَّار، الذي أعلن إسلامه، ودخل المشاعر، في غير وقت الحجّ. وقد تَّم نشره بعد التعليق على المغالطات التي وقع فيها هذا المستشرق.[١]

وأحيل إلى كتاب الدكتور قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، إذ يناقش فيه مسألة إسلام هورخرونيه، والله أعلم بالسرائر.[٢] وغير هذا الكتاب كتب أخرى، قليلة نشرتها المكتبة العربية، آمل أن تتصدى لها جامعة أم القرى، من خلال معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحجّ، بالدراسة والبحث، وقبل ذلك تجميع هذه الكتب، حتَّى في لغاتها الأصلية. وعلى أي حال، فالموضوع يحتاج إلى بحث مستفيض لا تخلو منه المكتبة العربية.[٣]

=

الثالث عشر الهجري. — ج ٢/ نقله إلى العربية وعلَّق عليه محمَّد بن محمود السرياني ومعراج بن نوَّاب مرزا، راجعه محمَّد إبراهيم أحمد علي. — مكَّة المكرَّمة: نادي مكَّة الثقافي الأدبي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م. — ٥٦٤ ص.

(١) انظر: ك. سنوك هورخرونيه. صفحات من تاريخ مكَّة المكرَّمة. — ٢ مج/ نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ، أعاد صياغته وعلَّق عليه محمَّد بن محمود السرياني ومعراج بن نوَّاب مرزا. — الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م. — (سلسلة: مكتبة الدارة المئوية).

(٢) قاسم السامرَّائي. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. — الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. — ص ١١٠ — ١٣٧.

(٣) انظر، مثلاً: دارة الملك عبدالعزيز. الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية:

=

إن مجرَّد منع غير المسلمين من دخول المشاعر المقدَّسة يثير كثيرًا من الفضول، ويبعث على قدر من الاحتيال لمجرَّد الدخول إليها حبًا في الاستطلاع. ثم دخلت تقنية نقل المعلومات وقرَّبت هذه المشاعر من الناس، بحيث تعمد القنوات الفضائية إلى نقل المشاعر والشعائر إلى الناس، على الهواء مباشرة، واهتمَّت قنوات عالمية بهذا المنظر العجيب، فبعثت موظفيها المسلمين لتغطية هذا الحدث السنوي، الذي يثير الإعجاب بالحكومة السعودية، التي تقوم على كل هذا، وعلى قدر عالٍ من الدقة والإتقان في تيسير وتسيير مليوني نسمة في مكان واحد، وفي زمان واحد.

هذا مع عدم إغفال حدوث بعض المنغِّصات الآنية التي تؤثِّر في كمال الخدمة. كل هذا بعون من الله تعالى وتوفيق منه، ثم بالإخلاص في نيل ثواب هذه الخدمة النبيلة لعباد الله تعالى، ليشهدوا منافع لهم في مكَّة المكرَّمة والمشاعر المقدسة الأخرى. أفيجرؤ بعد هذا كله إنسان أن يسيء إلى هذه الشعيرة المباركة، لاسيَّما إذا كان من بني الإسلام، بأي نوع من أنواع الإساءة، حتَّى تلك التي تستغلُّ هذا المقام، فتتشل أو تتسوَّل، وهي ليست محتاجة!

* * *

=

بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدَّة من ٢٤ – ٢٧ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢١ – ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م. – ٢ مج. – الرياض: الدارة، ١٤٢٤هـ. – ١٠٠٢ + ١٤٣ ص.

الوقفة الثالثة

الحجّ والتميُّز

الذي يبدو، بل إن الذي ينبغي أن يكون، أن كل عبادة يؤدِّيها المرء، خالصةً لوجه الله تعالى، لها طعم خاصٌّ متميِّز عن التي سبقتها، وإن كانت من نوعها، شروطًا وأركانًا وواجبات، وما يتعلّق بها. وكنت قد ذكرت هذا قبل وداع شهر الخير والبركة، شهر رمضان المبارك. وندخل، نحن المسلمين، أشهر الحجّ المعلومات، وتبدأ الاستعدادت العملية لاستقبال ضيوف الرحمن، منهم من سبق له الحجّ، ومنهم من يحجّ لأول مرة، ومن سبق له الحجّ سيشعر بالفرق عن الحجّة السابقة، وإن كان قد أدَّاها في العام المنصرم، ذلك أن طعم الحجّ سيختلف في هذا العام عنه في الأعوام السابقة. هكذا هو الشعور مع كل عبادة. ومع أن الصلاة تتكرَّر معنا خمس مرات في اليوم الواحد، إلا أن لكل صلاة طعمَها المتميِّز عن التي سبقتها، حيث يشعر المصلي، ذكرًا كان أم أنثى، بأنه أضاف إلى رصيده شيئًا ينفعه، عندما يلقى الله تعالى.

فإذا كان هذا الشعور قائمًا في الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وصيام شهر في السنة، فإن الشعور نفسه يزداد مع فريضة مطلوبة في العمر مرَّة، لمن استطاع إلى ذلك سبيلًا. ذلك أن الرحلة

لها طعمها، وخطوات الحجّ، من حيث أركانه وواجباته وشروطه، لها كذلك طعمها، من مرحلة إلى التي تليها، حتّى ينهي الحاجُّ آخرَ ما يتمُّ به الحجّ، وهو ينتقل من شعور إلى آخر.

إذا أضيف إلى ذلك التغيير المادِّي إلى ما هو أفضل، كلَّ عام، من حيث الخدمات التي يقوم بها المسؤولون عن الحجّ، الذين جعلوا خدمة الحاجِّ أمانة في أعناقهم، وآلوا على أنفسهم أن يتركوا الهموم المادِّية لهم بعيدة عن كاهل الحاجِّ، بحيث يتفرَّغ للدعاء والأداء وطلب القبول، هذا التغيير المستمرِّ يضفي طعمًا خاصًا على هذه الشعيرة الفريدة.

رغم أن البعض يرغب في المشقَّة، لا رغبة فيها من حيث هي مشقَّة، ولكن رغبةً في زيادة الأجر من وراء المشقَّة، إلا أن التسهيلات المادية، مهما وصلت إليه، فإنها لا تعفي المرء من شيء من المشقَّة، تختلف من زمان إلى زمان، بل من عام إلى عام. فليس يدخل في المشقَّة أن يخرج الحاج من أهله مودِّعًا على أنه لا يعود، بسبب من قطَّاع الطرق واللصوص، وليس من المشقَّة أن يلقي المرء بنفسه إلى التهلُكة، وإن كان يؤدِّي فرضًا، فليس من الفروض المكتوبة ما يدعو إلى التهلُكة بهذا الإطلاق، وإنما تأتي التضحية عندما يهدَّد المرء في ضروراته الخمس المعروفة، وعندما يهدِّد الشرُّ انتشارَ الخير.

على أي حال، يأتي موسم الحجّ كل عام والأُمَّة الإسلامية تتطلَّع إلى شعيرة متميِّزة، معنىً ومادة، بعيدًا عن الشعارات والممارسات التي تتعارض مع روحانية هذه الشعيرة. وهنا يرى

البعض أن أداء الحجّ لا يخلو من حس سياسي يجمع الأُمَّة، ولعله لا يفهم من هذا أن يعزل موسم الحجّ من السياسة، بالمفهوم الشرعي للسياسة، التي هي من صلب هذا الدين، ولكن من يرغبون في المراء والجدال يُقحمون في الموضوع ما لا يحتمل، من تطويع هذه المواسم لجلب أفكار وتوجُّهات، لا تتَّفق، بالضرورة، مع المفهوم الشرعي للسياسة، بل هي حركة "لبيع" هذه الأفكار وتسويقها على أناس لا يرغبون في شرائها، بل إنهم في هذا الموقف قد جعلوا نُصب أعينهم القيام بشعائر الحجّ على الوجه الذي يراد منهم القيام به، دون زيادة مخلّة، أو نقص فيه تقصير عن المطلوب، وما عدا ذلك فليس لهم فيه حاجة.

أما إذا رغب الحاجُّ في التفقُّه في الدين، فيما يتعلق بالحجّ أو غيره، فإن أهل الذكر موجودون مفرَّغون للمستفتين، في أي مجال من مجالات الحياة، فليس هناك في هذا الموسم المبارك حجر على علوم شرعية على المسلمين، بغضِّ النظر عن خلفياتهم الإقليمية، ووجهاتهم الجغرافية، وهكذا ينبغي أن يكون الحجّ تجمُّعًا ميمونًا، فيه تآلف بين المسلمين، وفيه لقاء مودَّة وأُخوَّة ومحبَّة وطلب رضىً من الله تعالى وقبولٍ منه.

* * *

الوقفة الرابعة

الحجُّ المؤتمر

يمرُّ على المسلمين موسم سنوي يتكرَّر كل عام، عندما تجتمع الملايين من المسلمين في مكان واحد، يحقّقون بذلك ركنًا من أركان الإسلام، مشروطًا بالاستطاعة إليه سبيلاً. وهو الركن الوحيد الذي اقترن بالاستطاعة لما فيه من مشقّة وتعب واضحين.

يرى بعض الناس ألا تمرَّ هذه الفرصة دون استغلالها، بأي شكل من أشكال الاستغلال الطيِّب، وكأن أداء المناسك الذي هو الغرض من هذا التجمُّع ليس استغلالاً للموسم، على ما ينبغي أن يستغلَّ عليه، دون رفث أو فسوق أو جدال. ولعل هذه الدعوة، التي يتأثَّر بها بعض المفكّرين، هي نتاج التوجُّه الفكري في النظر إلى الإسلام وإلى تشريعاته، التي تتمثَّل في أركان يقوم بها المسلم في حياته. ويأتي التوجُّه الفكري هذا على حساب العلم الشرعي، في فهم هذه الشعيرة المباركة، التي هي عبادة من العبادات، وليست، كما يقول المفكّرون، مؤتمرًا عامًا، تُلقى فيه الأوراق، وتوزَّع فيه الهموم، وتكثر فيه الشكاوى لغير الله تعالى، وترفع فيه الشعارات، وبالتالي ينصرف الناس، أو يُصرفون، عن الغرض السامي الذي اجتمعوا فيه على هذا الصعيد الطاهر.

عليه، فإن المؤمَّل ألا ننتقل من المصطلحات الشرعية لممارساتنا في العبادة، ونستعيض عنها بمصطلحات رنَّانة، تستخدمها ثقافات أخرى، تجتمع في أماكن متعدِّدة، وتدين لحزب واحد، وتقدِّس رموزه من البشر، وتسمِّي هذا التجمُّع مؤتمرًا عامًا، ما هو إلا تمجيد للحزب وقياداته، وتوكيد على تطبيقه على المنتمين إليه.

الحجّ أسمى من ذلك بكثير، إنه إخلاص لله في العبادة وخلوص له من الشرك، وتفرُّغٌ تامٌّ بين العبد وربه، ويدعو العبد ربَّه، متضرِّعًا أن يقبل منه طاعاته، ويعفو عن زلاَّته. ولا يتخلَّل ذلك أي مؤثِّرات، من قريب أو بعيد، إلا ما يكون من توجيه وإرشاد وفتوى وردود على مشكلات ومسائل، ترد أثناء القيام بهذه الشعيرة المباركة، ويتصدَّى لها العلماء والواعظون والمرشدون، دون دخول مباشر في توجيه الناس إلى أي أمر يشغلهم عن أداء نسكهم، بل إن هذه القلّة من العلماء إنَّما يحضُّون الناس على التوجُّه إلى العبادة الخالصة لله تعالى، في هذه المناسبة المباركة، وعدم إفسادها باللجاج والجدل.

كنت قد توقَّفت عند طغيان الفكر على العلم، الذي لن يكون بحال من مصلحة الأُمَّة، ولا يعني أفرادها بحال، لاسيَّما الحجَّاج الذين قد يشغلون بالفكر عن العبادة. وهم سيسألون أمام الله تعالى فرادى، ولن يأتي المفكِّرون ليتحمَّلوا عنهم سوء استغلالهم للمشاعر المقدَّسة والشعيرة المباركة، لأن هؤلاء المفكِّرين سيشغلون بأنفسهم ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾. (الشعراء: ٨٩).

إنني، هنا، لا أحمِل على المفكّرين، ولا أدعو إلى الحجّر على الفكر والتفكُّر والتفكير والتدبُّر والتعقُّل، فلا يدعو إلى ذلك عاقل، وأزعم أني على قدر لا بأس به من العقل. والذي أحمل عليه، هنا، وفي كل مجال، هو أن يطغى الفكر على العلم، ويكون ذلك على حساب الأداء الصحيح لعبادات، فرضها الله علينا، فرضًا توقيفيًا، نؤدِّيها كما جاءت، ولا نتفلسف في طريقة أدائها في أصولها، لا في فروعها. وغير ذلك فإن الفكر والتفكير جزء من حياتنا، بل إن إعمال الفكر نفسه عبادةٌ لله تعالى.[1]

* * *

(١) هناك نقاش مستفيض حول النظر إلى الفكر من منطلق مؤصَّل في: علي ابن إبراهيم النملة. الفكر بين العلم والسلطة: من التصادُم إلى التعايُش. — مرجع سابق. — ٢٧٧ ص.

الوقفة الخامسة

أهل الذِّكْر في الحجِّ

يقرأ المسلم عن الحجّ، ركنًا خامسًا من أركان الإسلام، ويدرك، نظريًا، الخطوات المراد اتِّباعها في الواجبات والشروط والأركان والمستحبَّات في الحجّ، ولكنه، عندما يصل إلى بيت الله الحرام والمشاعر المقدَّسة، يجد نفسه أمام سيل من التساؤلات عن كيفية الأداء الصحيح، الذي يبتغي فيه القبول. فهو إنما قصد البيت الحرام ليحجّ حجًّا مبرورًا، ليس له جزاء إلا الجنَّة، فلا يريد التفريط في ذلك. وأمام هذه التساؤلات يجد الحاجُّ نفسه بحاجة إلى أهل الذِّكر، يسألهم عما لا يعلم من المناسك.

من وسائل التنظيم في الحجّ وجود كوكبةٍ طيبة من العلماء وطلبة العلم، وقفوا أنفسهم للإجابة على أسئلة الحاج الكثيرة. وتجد هؤلاء العلماء وطلبة العلم وأهل الذكر في أماكن متعدِّدة من المشاعر المقدَّسة، جاءوا من أرجاء البلادة الطاهرة إلى هذه المهمَّة بدءًا بالعشرين من شهر ذي القعدة إلى العشرين من شهر ذي الحجّة.

لا تقتصر مهمَّة هؤلاء الرجال على الجلوس للفتيا، والإجابة على التساؤلات، بل إن لديهم برامجَ توعويةً بالحجّ وأموره، وجميع

ما يهمُّ الأُمَّة الإسلامية، من خلال محاضرات، تعقد في المساجد أو في المخيَّمات، وكذا حِلَق الذكر والدروس العلمية.

يعمد كثير من الحجّاج إلى الإفادة من هذه القلّة المباركة من رجال العلم، الذين تنعم بهم هذه البلاد الطيبة، وهم موضع ثقة من المسلمين، ذلك أنهم يحسبون فيهم الإخلاص والصدق والأمانة، في نقل العلم، وفي الإجابة على الاستفسارات. وهم بطبيعة الحال يدرسون حال المستفتين، ويميلون في الجملة إلى التيسير على الناس، بحسب الحال، دون الخروج عن الإطار العام للمسألة موضع البحث، فهم يتسامحون ولا يتساهلون، ويعمدون إلى المرونة لا التسيب، فلا مجاملة في الدين، ولا تنازُل عن أحكامه.

لو أُجري مسح عام على الأسئلة والاستفتاءات، التي ترد إلى أهل الذِّكر لاستطاع الدارس لها الخروجَ بتصنيف عامٍّ لها، يمكن الافتراض فيه، من الآن، أن جملتها تتعلَّق بالحجّ بطبيعة الحال، وأن جملتها تأتي من حجّاج، قدموا إلى المشاعر من خارج البلاد، ليس لأنهم جهلة بالأحكام العامَّة للحجّ، ولكن لأن العلماء في مواطن هؤلاء الحجّاج قليلون، بالنسبة لوجودهم في بلاد العلم والخير. وهذه مسألة ينبغي عدم إغفالها. فالبلاد – بفضل الله تعالى – غنية بالعلم والعلماء وطلبة العلم، الذين وصلوا إلى مستويات عالية من العلم والثقافة والوعي، ومتابعة أحوال الأُمَّة. فحريٌّ بالمسلمين أن يستفيدوا من هذا العلم في شتَّى مناحي الحياة.

على أن الأمر، هنا، ليس مقصورًا على علماء هذه البلاد، مع ما فيهم من خير، إذ إن العلم الشرعي متاح للجميع، وهؤلاء العلماء

موجودون في أماكن كثيرة من بلاد المسلمين، وبين الجاليات المسلمة، والأقليَّات المسلمة. ولذا يستفاد من علمهم في الحجّ، ويستعان بهم – بعد عون الله تعالى – على أن ينظر للحجّ من زاوية كونه منتدىً عالميًا، تتجسَّد فيه روح الأخوَّة والتضامُن بين الجميع، بغضِّ النظر عن الحدود. وقد أُطلق على هذه الجملة من أهل العلم بأنهم: علماء بلاد حدود.

حيث إن الأمر كذلك في مسألة الفتيا وبروز أسئلة ومشكلات علمية أمام الحاجِّ – ذكرًا كان أم أنثى – كان حريًا بالمسؤولين عن الحجّ إدراج هذه المسألة في التنظيم العام للحجّ، لئلا يتولَّى الفتيا من لا يجيدها، فيَضلَّ هو، ويُضلَّ الناس معه. ومتى ما وجد الناس تنظيمًا دقيقًا جيدًا عمدوا إلى الإفادة من التنظيم بسؤالهم العارفين، بدلاً من أن يسألوا أيَّ شخص عابر.

* * *

الوقفة السادسة

تكرار الحجّ

نقلت جريدة المسلون نقدًا موجَّهًا إلى المسلمين من أحد علمائهم الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي حول «قيام بعض المسلمين بأداء الحجّ عشرات المرات في الوقت الذي لا يهتمُّون فيه بإنقاذ ملايين المسلمين من الموت جوعًا وقتلاً».[1] وكنت في وقفة سابقة حول الحجّ والتنظيم قد تعرَّضت لموضوع «الحد من عدد الحجّات للحاج الواحد»، رغبة في فسح المجال لمن لم يتمكّن من أداء الحجّ من قبل. وها هو أحد علماء الأُمَّة الموثوقين يلمِح إلى الإفادة من هذا الموضوع من جانب آخر، يمكن فيه حصر تكاليف الحجّ في أدنى حدود التكاليف، ثم بعث ما يصل إليه الحصر من مبلغ مادِّي إلى مواطن الفقر والجهل والجوع والمرض في مجتمع الأُمَّة العريض.

بهذا يكسب هذا المتبرِّع أجرين، عقد النية على احتسابهما عند الله تعالى، والتوسيع على المسلمين، في موسم سنوي يكثر فيه الحجّاج، إذ يظل المكان كما هو رغم الإصرار على التطوير في الخدمات من المسؤولين عن الحجّ، إلا أن المكان يظل هو

---

(١) يوسف بن عبدالله القرضاوي. المسلمون. – ع ٥٠٥ (١٤١٥/٥/٢هـ).

المكان. والأجر الثاني: يأتي من صرف نفقات الحجّ على مَواطِنَ، هي بحاجة إلى هذه النفقات، إذ يتوقّع من نفقات الحجّ لفرد واحد أن تعيش منها أسرة كاملة، لمدّة غير قصيرة من الزمن، يمكن تحديدها، إذا ما حُدِّد المكان الذي ستذهب النفقات إليه.

الكسب الثالث من هذا الفعل هو الإعانة على تلمُّس الأوليَّات في أداء العبادة لله تعالى، وتقديم الواجبات على النوافل، والحرص على المفروضات، قبل فروض الكفاية بالنسبة للأفراد، والنظر إلى الأصول في العبادة، قبل الولوج في الفرعيات، وهكذا. وهذا الأمر مما تحتاجه الأُمَّة في هذا الزمان للخروج من "الاختلال الخطير"، بحسب التعبير المنقول عن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي.

من جهة أخرى فإن صدور هذا "التوجيه" من عالم يختلف في وقعه قطعًا، إذا ما صدر عن شخص ليس عالمًا مهمًا، أُسبغ عليه من الألقاب الأخرى، كالمثقّف أو المفكّر أو الكاتب أو نحوها. وليس هذا ادِّعاء بأن صاحب هذه الحروف داخل في أحد هذه التصنيفات، إلا أنه توكيد على ضرورة ولوج علماء الأُمَّة هذا المجال، وتوجيه الناس في كل مكان باحتساب الأجر المضاعف، عند الاكتفاء بما قاموا به من أداء للحجّ، وصرف نفقاته في مجالات أخرى، المجتمع المسلم بحاجة ماسَّة إليها. والمهم، هنا، هو درجة القبول، ووقع هذا التوجيه من عالِم يفقه الأمر من جميع زواياه، ولا ينظر إليه من زاوية واحدة، قد تكون ذات علاقة بجانب واحد، كالمكان مثلاً، لاسيَّما أن هناك من يصعب عليه

أن يمتنع عن الحجّ، إذا لم يقتنع بالبدائل التي تتخطّى الأداء في مسألة المثوبة من الله تعالى، ذلك أن العالِم حينما يتصدَّى لهذا الموضوع فهو ينطلق من "صلاحيات" وفَّقه الله تعالى إليها، بما أعطاه من علم وفقه في العلم.

حبذا لو يقتنع بقية علمائنا برأي الشيخ يوسف القرضاوي، وإخالهم مقتنعين، ومن ثمَّ تبدأ حملة توعية في وقت مبكِّر، للتوسيع على عباد الله تعالى، الذين قد لا يتاح لهم الوقوف على صعيد عرفات إلا مرَّة واحدة في حياتهم، وحبَّذا لو يركِّز علماء الأُمَّة – في كل مكان – على مفهوم الاستطاعة، شرطًا من شروط تحقيق الركن الخامس من أركان الإسلام، وفي هذا أيضًا توسيع على الناس، أو بعض المسلمين، الذين قد يفدون إلى المشاعر المقدَّسة، وشرط الاستطاعة ليس بالضرورة متحقّقًا فيهم.

* * *

الوقفة السابعة

التيسير في الحج

إفعل ولا حرج، هذه عبارة لا يقولها إلا عالم، وما قالها من قبل إلا عالم، وأرجو ألا يقولها من بعد إلا عالم. أما جرأة بعض الناس واعتقادهم أنهم يعلمون، وهم لا يعلمون، فإن هذا الإطلاق لا ينطبق منهم، ولا ينطبق على ما يفتون به من أحكام، لم يطّلعوا عليها من العلماء، أو من بطون الكتب، بل إن جزءًا منهم قد أخذها "بالممارسة" وأضحى بين الناس – لاسيَّما عامَّتهم – عالمًا، يعود إليه الناس في الخروج من المسائل التي تواجههم أثناء الحجّ.

واضح من هذه العبارة الذهبية أن المراد التسهيل على الحجّاج. ويذكر أن معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – مر على عبدالله بن عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – وسمعه يردِّدها على السائلين، فقال عبارته: "هذا هو الدين" أو نحوها. ولكن هذه الواقعة تؤكّد على المسؤول وعلمه بما يجيب السائلين، والحديث هنا يتعلّق بعبدالله بن عمر – رضي الله عنهما –.[1]

لقد تهيَّأ للحاجِّ بفضل الله تعالى، ثم بالمتابعة المباشرة المستمرة من القيادة، رهطٌ من طلبة العلم والعلماء والمفتين، الذين خصَّصوا

---

(١) توثيق الرواية.

وقتهم وجهودهم لخدمة الحاجِّ، فيما يعنُّ له من مسائل، وأحسب أن هذه الفئة، ومن هم في حكمها من رجال العلم، هم الذين يملكون زمام «إفعل ولا حرج». ولا يعني هذا – في الوقت نفسه – تضييق الأمر على فئة دون فئة، فالعلم ليس وقفًا على فئة دون فئة، ولكن الحجَّ ليس مجرَّدًا من الشروط والأركان والواجبات والمستحبَّات والمباحات والمكروهات والمحرَّمات، وهذه ليست مما ينطبق عليها القول بأنها معلومة من الدين بالضرورة، بل إن من يعلمها، نظريًا، قد يواجه صعوبات علمية عند التطبيق والممارسة.

إن التسهيل على الحجّاج عمومًا، وعلى الحالات الخاصَّة منهم، مطلب، لكنه مطلوب من أهل الذكر، لا من أولئك الأشخاص، الذين يغلّبون الرأي على ما فيه حكم معروف، مهما قبل هذا الحكم من إعادة نظر بين الفينة والأخرى، بين علماء المسلمين على مر العصور.

* * *

الوقفة الثامنة

السُّعَدَاء في الحجِّ

الحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، والسعيد من كان حجّه مبرورًا، ويصرُّ على أن يكون مبرورًا، بالابتعاد عن أي تصرُّف أو سلوك، قد يخرجه من الوصول إلى هذه النتيجة المطلوبة، التي سعى إلى الوصول إليها، بجهده وماله ووقته، فرجع من حجّه كيوم ولدته أمُّه، كما أخبر المصطفى محمَّد بن عبدالله ﷺ: «من حجّ هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه».[1]

• السعيد من حجّاج بيت الله الحرام من استفاد من مراكز توعية الحجيج، فسأل أهل الذِّكر عما لا يعلمه من المناسك، ورغب في أداء هذه الشعيرة على الوجه المنتظر منه القيام به، بعيدًا عن المبالغة في الأداء، مما يصل إلى حد الإفراط، أو التقصير في أدائها، مما يصل إلى حد التفريط. ثم أدَّاها على وجهها الذي أدَّاها عليه قدوتنا في الحجّ، وفي الحياة، سيِّدنا محمَّد بن عبدالله، عبدالله ورسوله – عليه أفضل الصلاة والسلام –، ثم الصحابة والتابعون والسلف الصالح، الذين قالوا عن الحجر الأسود إنما هو حجر، ولولا أنهم رأوا القدوة ﷺ يقبِّله ما قبَّلوه، وقالوا كذلك إنهم

---

(١) تخريج الحديث.

يرمون حجرًا ويقبلون حجرًا، وهم بذلك راضون بما ارتضاه لهم قائد الحجّ الأول أبو القاسم – عليه أفضل الصلاة والسلام –. وتستحضر، هنا، عبارة خليفة خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطّاب ﷺ: «إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبِّلك ما قبَّلتك».

• السعيد من حمد الله تعالى على أن يسَّر له القيام بهذه الشعيرة على الوجه المنتظر، وترك "هامشًا" لابدَّ منه من المشقَّة والعناء الذي يزيد، بإذن الله، من الأجر، ويضاعف من المثوبة، إذا ما صبر الحاج واحتسب. ويكفيه في هذا مشقَّة السفر والانتقال، وتغيير نمط الحياة التي عاش عليها.

• السعيد من حجّاج بيت الله الحرام من أعطى القوس باريها، وترك الشؤون الأخرى للحجّ لأولئك الذين آلوا على أنفسهم أن يكونوا في خدمة ضيوف الرحمن، وعملوا على ذلك منطلقين من التوكيد عليه، من خلال شعورهم بالمسؤولية أمام الله تعالى، مما أدَّى إلى النصِّ عليه في النظام الأساسي للحكم.[1]

• السعيد من أدرك هذه الجهود، فقدَّرها، وقدَّر القائمين عليها، وطاف بفكره من حوله، ومن وراء ظهره، فتذكَّر، أو خبر وسأل واستفسر، ما كان عليه الحجّ في زمن مضى، لم يكن

---

(١) ونص المادة: «تقوم الدولة بإعمار الحرمين الشريفين وخدمتهما وتوفير الأمن والرعاية لقاصديهما بما يمكِّن من أداء الحجّ والعمرة والزيارة بيسر وطمأنينة»..

بعيدًا، وما أضحى عليه الحجّ الآن، وما ينتظر أن يكون عليه الحجّ فيما يأتي من السنين – بإذن الله تعالى – فالطموح لا يقف عند حدٍّ، والرغبة في التطوير مطلب تسعى هذه البلاد إلى تحقيقه، والمضي فيه.

• السعيد من حجّاج بيت الله الحرام من احترم الأنظمة، وقدَّر الحكمة من وضعها، فحزم حقائبه عائدًا إلى بلاده، داعيًا الله تعالى القبول، والعودة إلى هذه الرحاب الطاهرة، في وقت يأتي – بإذن الله تعالى – ذلك أن التخلُّف بعد الحجّ يكوِّن مشكلة لهذه البلاد، تؤثِّر على أمور كثيرة فيها. والحاجُّ، بعد هذا كله، لا يتوقَّع منه إلا أن يتمنَّى الخير لهذه البلاد وأهلها، لتستمر في خدمة الحرمين الشريفين، وخدمة حجّاجهما، وعمَّارهما، وزائري مسجد المصطفى ﷺ.

• السعيد من حجّاج بيت الله الحرام من نقل هذه الصورة المشرقة إلى إخوانه، بحيث يدرك العالم الإسلامي، على الأقل، أن الأُمَّة لا تزال بخير، وستظل كذلك – بإذن الله تعالى – ما دام هناك أناس يشرُفون بأن يخدموا ضيوف الرحمن، دون انتظار الجزاء من الناس. ثم دعاهم إلى أداء هذه الشعيرة متيحًا لهم المجال لذلك، بعد أن أدَّى الفرض، ورأى كثرة الحجّاج، التي تدعو إلى التنازُل عن تكرار الحجّ مرَّات متقاربة.

• السعيد، في النهاية، من ابتغى بحجّه هذا وجه الله والدار الآخرة، فكان حجّه هذا مبرورًا، وسعيه هذا مشكورًا، وذنبه

مغفورًا، وما كان له جزاء إلا الجنة. ومن المسلمين من يتطلّع إلى هذا الجزاء، ليس إلاّ.

* * *

الوقفة التاسعة

الاستطاعة في الحجِّ

لقد هيَّأ الله تعالى لي أن أدرك عمرةً في شهر رمضان المبارك، وفي العشر الأواخر منه، واطَّلعت مباشرة على هذه الجهود المباركة في خدمة بيت الله الحرام، والإصرار على ذلك. ثم اطَّلعت على أمم جاءت من كل فجٍّ عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات، واجتمع في الحرم المكي الشريف في وقت واحد أكثر من مليونين ومئتي ألف مصلٍ ومعتمر وقائم وراكع وساجد وعاكف وقارئ لكتاب الله، يرجو رحمته، ويخافُ عذابه.

لقد تبيَّن أن عددًا غير قليل من هؤلاء العباد تظهر عليهم الفاقة، ويحفُّهم الفقر، وقد جاءوا من أماكن بعيدة، المستغرب كيف استطاعوا تدبير ثمن الراحلة أيًّا كان نوعها، وهي قسم مهمٌّ من مفهوم الاستطاعة، أمَّا الزاد، وهو القسم الثاني، فإني أشكُّ في أنهم قادرون عليه، إلا من أيدي المحسنين، ممن يقفون الزاد على عباد الرحمن في بيت من بيوت الرحمن.

بل إن منهم من خصَّص وقتًا من هذه المناسبة، يقف أمام القادمين إلى الحرم للصلاة، ثم يقف أمام المغادرين من الصلاة. ولو خرجت من باب العباس أو باب النبي، أو أي الأبواب التي تُفضي إلى الغزَّة ستجد على يمينك في التوسعة المفتوحة فلولاً من الناس، رجالاً

ونساءً، مرابطين في هذا المكان تحت الجبل يستظلون بظله، وربَّما وجدت منهم النائم من ذكر وأنثى. وهؤلاء عدد غير قليل، وغيرهم كثير في أماكن أخرى حول الحرم، حتَّى أنك لتأسف أن ترى هذا المنظر يتكرَّر كل زمان بحجّة أن هؤلاء يسعون إلى عمرةٍ في شهر رمضان تعدل حجّة مع المصطفى ﷺ.

مع الدعوة لهؤلاء بالقبول والثواب العظيم، ولا أملك أن أمنع عنهم رحمة الله تعالى، إلا أنهم على ما يظهر مدفوعون بالعاطفة الدينية، التي تقود هؤلاء إلى هذا الفعل، وتهوِّن عليهم هذه المعاناة.

المعلوم أن الدين، في الجملة، لا يؤخذ بالعاطفة فحسب، ولكنه يقوم على عدَّة مقوِّمات، قد تكون العاطفة جزءًا منها، ولكنها ليست المقوِّم الأول، وليست مقدَّمة على مقوِّمات مهمَّة، هي جملة من الأحكام الشرعية، التي تعين الإنسان على أن يقوم بالعبادة، على الوجه الذي يرضي الله تعالى، فيحصل معها القبول - بإذن الله تعالى -.

قد لا أذهب بعيدًا إذا شبَّهت هذا الموقف الذي رأيته بتلك الجموع التي تتوافد على ولي من أولياء الله تعالى، تنفق في سبيله الكثير الكثير، وترابط عنده مدَّة من الزمن، تفرِّغ فيها شحنات من العاطفة الدينية، ثم تعود أدراجها بعد ذلك، مثقلة بالفقر والفاقة، تبدأ في تسديد الديون التي طالتها في إقامتها هذه، فيستمرُّ الفقر، وكل هذا، على زعم من هؤلاء، في سبيل الله. والفارق كبير بين التشبيهين من حيث المعتقد - حتَّى لا يفهم التشبيه خطأً - فهؤلاء قد قصدوا الله تعالى وأولئك قد قصدوا

وليًا، مضى عليه الزمان، فأضحى لا يضرُّ ولا ينفع، والله تعالى باقٍ سبحانه، وهو معبود في كل مكان.

إلا أن التركيز، هنا، هو أن الدافع لهذا الموقف هو العاطفة فحسب، ونسي كثير من هؤلاء - بل ربَّما كلهم - أن الحجّ والعمرة مقرونان بالاستطاعة، بل إن الحجّ هو الركن الوحيد من الأركان الخمسة الذي اقترن بشرط الاستطاعة، مع أن الزكاة مشروطة، والصيام مشروط، بل والصلاة مشروطة، ومع هذا فلم يصرَّح بالشرط إلا مع الحجّ، وتدخل فيه العمرة، لما فيه من الانتقال الذي يقتضي الزاد والراحلة. وقد قال الله تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (آل عمران ٩٧)، وقال عليه الصلاة والسلام: «بُني الإسلام على خمس - وذكر - حجّ البيت لمن استطاع إليه سبيلاً».[1] ولا يظهر لي أن افتراش الأرض - في هذا الزمان - يوحي بشيء من الاستطاعة المطلوبة، فما الموقف؟

من المهم جدًا أن يفهم هذا الركن الخامس من أركان الإسلام على أنه مرهون بالاستطاعة، وعليه فإن الفهم لهذا الشرط مهمٌّ جدًا، بحيث يسقط عن فئة من المسلمين، لا يملكون الزاد

---

(١) تخريج الحديث.

والراحلة، وإذا ما تمكّن المسلمون من هذا الفهم فإن نسبة لا بأس بها سوف تقتنع، شرعًا، بأنها ليست مطالبة بالحجّ، أي أنها في وضعها الراهن لا تشعر بعدم الارتياح إذا لم تؤدِّ فريضة الحجّ، لأنها، في هذه الحال، ليست مفروضة عليهم.

لعلَّ المعنيِّين المسلمين من العلماء والأئمة والخطباء والإعلاميين يركّزون على هذا العامل المهم جدًا، ذلك أننا نجد أناسًا، ومن دوافع عاطفية، يكلّفون أنفسهم ما لا تطيق، ويبيعون ما وراءهم ودونهم، بل قد يسيئون إلى أُسرهم وأهليهم في سبيل توفير المبلغ الكافي للزاد والراحلة، بل ربَّما لجأوا إلى الاقتراض أو بيع ضروريات، أو التسوُّل في بلادهم وفي الحرمين الشريفين والمشاعر، مما لا يليق بالمسلم أن يعمله، مهما كانت الدوافع، مما ينبغي الحدُّ منه إلى إيقافه، لأنه يتعارض، عقلاً وشرعًا ومنطقًا، مع هذه الشعيرة المباركة، ذلك أن الله تعالى الرحيم بعباده لا يكلّف نفسًا إلا وسعها، وأن الرسول الأمين محمَّد بن عبدالله ﷺ قد حثَّنا جميعًا على أن نتَّقي الله تعالى ما استطعنا.

عليه، فإننا مطالبون، شرعًا وعقلاً ومنطقًا ونظامًا عامًا، أن نُظهر هذه الشعيرة بالمظهر اللائق بها أمام المسلمين، ثم العالم؛ لأنها شعيرة تكتنف دعوة عملية حيَّة إلى الإسلام. ولذا، فإنها لابدَّ أن تكون خالية من أي عامل من عوامل التنغيص لهذا المسلك الشرعي المبارك.

* * *

الوقفة العاشرة

التنظيم في الحجِّ

من فضل الله تعالى على هذه الأُمَّة زيادةُ عددها، ورغبة هذا العدد في إكمال دينه، بالقيام بأركانه وفروضه وواجباته. ومن أركان هذا الدين الحنيف الحجّ إلى بيت الله تعالى لمن استطاع إليه سبيلاً. والذي يبدو أن الاستطاعة، الآن، أيسر مما كانت عليه من قبل، ذلك أن تقنية الاتصال والمواصلات، مع تعدُّد أبواب الرزق هيَّأ لكثير من العباد القدرة على جمع قدر من المال للحاجِّ، يتغلَّب فيه على مطلب الزاد والراحلة.

هذا يعني الكثرة في عدد أولئك الذين يرغبون في أداء هذه الفريضة، بل زيادة العدد في أولئك المتنفِّلين بالحجّ، ممن سبق لهم أداءه فريضةً. هذا في الوقت الذي تظلُّ فيه المشاعر محدودة في مساحتها، محدَّدة في سعتها، والخروج عنها يخلُّ بالفريضة أو بشعيرة الحجّ، ثم إن الخدمات، مهما توافرت، فإن الكثرة سوف تؤثِّر فيها، من حيث عمومُها وفاعليتُها. ومهما يكن، فالطاقات محدودة بالبشر والموارد والإمكانات. والأصل أن كل من استطاع إلى الحجّ سبيلاً أن يحجّ فرضه على أقل تقدير، دون النظر إلى التنفُّل، والأصل، كذلك، أن المشاعر مفتوحة لجميع المسلمين، في وقت الحجّ وفي غيره، فيما يتعلَّق بالعُمرة، ولم يجادل أحد في ذلك.

لأن هذا الدين دين عملي، صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، كان لابدَّ من الاجتهاد في تنظيم هذه الشعيرة الإسلامية، اجتهادًا لا يتعارض مع النصوص الشرعية. والتنظيم أسلوب حضاري، يكفُل فاعليةَ الخدمة، ويضمن للفرد أن يقوم بمشاعره في الحجّ على وجه مريح، فيه من التحقيق ما يرضي هذا الفرد، ويجعله يشعر أنه أدَّى هذه المشاعر على الوجه المطلوب بأمان وسلام وراحة، بعيدًا عن أي منغَّص يسيء إلى هذه الشعيرة المباركة. ولذا كان لزامًا على القائمين على خدمة حجّاج بيت الله مراعاة الآتي:

أوّلاً: الاستمرار في تطوير خدمات الحجّ في كل موسم، واتِّخاذ التدابير اللازمة لذلك، من حيث توفير كل ما من شأنه أن يضمن حجًّا سليمًا من كل المنغِّصات، المادِّية والأمنية والصحية والبيئية والمرورية، ونحوها.

ثانيًا: العمل على تحديد عدد الحجّاج القادمين كل عام وفي وقت واحد، بحيث يمكن استيعابهم في مكان محدود المساحة، ومن هنا ظهرت فكرة النسبة في أخذ أعداد الحجّاج، بحسب عدد المسلمين في كل بلد. وهذا أفضل بكثير من العدد الفعلي الذي يأخذ الأرقام تحديدًا من كل بلد، لأن في ذلك عدمَ مراعاة للزيادة المضطردة في أعداد السكّان.

رغم أن النسبة ستزداد في ترجمتها إلى رقم، بحسب زيادة عدد السكّان، إلا أنه كان من المناسب اتِّخاذ النسبة التي قد يعتريها شيء من المراجعة، بحسب الحال. وإزاء هذا الوضع ينتظر

من كل من يتصوَّر وضع الحجّ ويدرس هذا الموضوع دراسة متأنِّية أن يبارك مثل هذا الإجراء، الذي دعت إليه ضرورة زيادة أعداد الراغبين في أداء الفريضة.

ينتظر من الدول والجاليات أن تتعاون مع هذا الإجراء، لاسيَّما أنه اتِّفق عليه في لقاء شامل، فتعمد هذه الدول والجاليات إلى إعطاء الفرصة أوَّلاً لمن لم يحجّ أن يحجّ، ثم يأتي النظر إلى المتنفِّل، أخذًا في الحسبان أن الله تعالى سيجزي من رغب في الاستزادة من الحجّ، ولكنه آثر أن يفسح المجال لغيره، وإنما الأعمال بالنيات.

* * *

الوقفة الحادية عشرة

الحجَّاج من الداخل

المعروف أن المعنيين بالحجّ، كاللجنة العليا للحجّ تدرس كل الإمكانات والآراء والمشروعات والأفكار للخروج بموسم – أي موسم – بالنجاح، الذي هو غاية من غايات هذه الهيئة، التي تعبِّر عن توجُّه هذه الدولة، التي آلت على نفسها متابعة خدمة حجّاج بيت الله تعالى والمعتمرين وزوار مسجد رسول الله ﷺ، والعمل الدؤوب على تهيئة الأجواء الروحانية، لينشغل بها الحجّاج والمعتمرون، ويتركوا النظر في القضايا إلى أولئك الذين نابوا عن الأُمَّة في الرعاية. وإذا كان أمر حجّاج الخارج أصبح محسومًا بالقرار الجماعي، فإن حجّاج الداخل بحاجة ملحَّة إلى تنظيم، يكفُل، كذلك، الإفادة الفاعلة من الخدمات.

لا بدَّ من أن يعرِّج الحديث عن أولئك الذين يرغبون في الحجّ من الداخل من أبناء البلاد ومن المقيمين فيها، سواء أكان أداؤهم للحجّ فريضة أم نافلة. والذي يبدو أنه ضرورة اليوم هو وجود صيغ تنظيمية، تكفُل الإفادة الفاعلة من الخدمات الجليلة، التي تقدَّم للحجّاج في كل مشعر من المشاعر المقدسة.

قبل وجود التنظيم والسعي في تطبيقه، لابدَّ من التوكيد على فكرة الإيثار، ولابدَّ للعلماء والخطباء والأئمة أن يركِّزوا على هذا

الجانب المهم في حياة المسلم، إذا كان هذا المفهوم قابلاً للتطبيق في مجال الحجّ، فيُترك مجالٌ للتطوُّع في هذا الجانب ورجاء المثوبة المضاعفة – بإذن الله تعالى – من هذا الإيثار، لاسيَّما أن هناك من الأحاديث والآثار ما يؤكّد على أن القيام ببعض الأعمال التعبُّدية تعادل في مثوبتها حجّة وعمرة أو حجّة أو عمرة، ويحضرني من ذلك – على سبيل المثال – الانتظار في المسجد بعد صلاة الفجر بالدعاء والتلاوة حتَّى تطلع الشمس، ثم يؤدِّي المسلم ركعتين، فيعدل هذا العمل حجّة وعمرة.[1]

هذا الجانب في التوعية سيعين، بعد عون الله تعالى، على قبول أي تنظيم، يطرح بعد ذلك، إذ ستكون لدى الناس القابلية والفهم والإدراك للتنظيم، وأن المراد منه المصلحة العامَّة لحجّاج بيت الله الحرام، ثم بعد ذلك يتدخَّل التنظيم الذي ينتظر منه أن يشمل الجميع، من المواطنين والمقيمين على حدٍّ سواء، وإذا كان بالإمكان السيطرة على تحرُّكات المقيمين من خلال الأوراق الرسمية التي يحملونها، فإنه من المناسب السعي إلى السيطرة، أيضًا، على تحرُّكات المواطنين، من خلال حملهم للأوراق الثبوتية الرسمية، وهذا أمر متَّبع ومطلوب في جميع التحرُّكات؛ رغبة في معرفة الشخص المتحرِّك، داخل المدن والقرى أو خارجها.

لست أزعم، هنا، أنني أملك القدرة على الإحاطة بهذا

---

(١) نص الحديث وتخريجه.

الموضوع، فلهذا أهله ومتخصِّصوه، الذين يعون الموضوع من زواياه المختلفة. وقد يقال إن التطبيق العملي لأي أسلوب من أساليب تنظيم حجّاج الداخل يعتريه العجز، بحكم طبيعة البلاد المترامية، مع الأخذ بالحُسبان الحكم الشرعي لهذا التنظيم أو ذاك، الأمر الذي نراعيه – ولله الحمد – في كل تنظيماتنا، بما فيها هذا الجانب المهمُّ لجميع المسلمين.

يكفي، هنا، أن يتمَّ التوكيد على الرغبة في تنظيم حجّاج الداخل، من المقيمين والمواطنين. وأن هناك إمكانيةً لهذا التنظيم، وأنه قبل أي تنظيم لا بدَّ أن يركِّز على جانب التوعية، عن طريق جميع قنوات التوعية، في المساجد والمنابر والوسائل الإعلامية الأخرى، ويعلم كذلك أن الذي دعا إلى هذا الإجراء الضرورةُ، ليس إلا، وإلا فالأبواب مشرعة للعباد، مهما كان مقامهم. وهذا مهمٌ حتَّى لا يؤخذ من الآخرين على أنه يراد منه مقاصد أخرى، ليست في البال، ولا تتَّفق مع التوجيه الذي تتبنَّاه القيادة في هذه البلاد.

أما وقد وصل الحجّاج، من الخارج والداخل، إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحجّ، فإنه من البدهي أن تخضع هذه الجموع الغفيرة إلى لون من ألوان التنظيم، يكفُل سير الحجّاج في مشاعرهم، سيرًا حسنًا. وحيث إن هذه التجربة السنوية فريدة من نوعها، عندما يجتمع أكثر من مليون مسلم في مكان واحد وفي وقت واحد، فإنه من الحكمة أن يحرص المنظِّمون لهذه الجموع على تيسير المشترك بين الحجّاج، في ضوء ما جاءت به سنة

المصطفى ﷺ، وفي ضوء تطويع المشاعر للعصر، من حيث إمكانات التقنية في مجالات السير والنقل والسكنى والصحّة والتهوية والإضاءة، وغيرها.

الشعارات:

إنه من الحكمة، في الوقت نفسه، التوكيد على عدم سوء استغلال هذا الموسم الروحاني الفريد، في سبيل بث الأفكار أو الشعارات، التي تتنافى مع روح الحجّ، مهما قيل عنها إنها من روح الحجّ، فما لم تجتمع الأُمَّة عليه في أي نشاط، وما لم يثبت عن سلف هذه الأُمَّة، وما لم ينزل به قرآن كريم، وما لم تأتِ به سنَّة مطهَّرة، مما قد يدخُل في صميم الحجّ، فإنه لا يُعدُّ بالضرورة من الحجّ، بل ربَّما يدخل في مفهوم البدعة التي هي ضلالة، وكل ضلالة في النار. كما أنها تعد خروجًا على الجماعة، وشذوذًا عنهم، ومن شذَّ شذ في النار، هكذا دون مواربة، أو مجاملة، أو مداهنة.

لم يعهد الحرمان الشريفان، منذ استقرار الأوضاع في هذه البلاد الطاهرة، أن الناس قد حُرِموا في يوم من الأيام من أداء واجب، أو القيام بسنة، بل إن المسؤولين عن الحجّ والعمرة والزيادة، والمسؤولين عن الحرمين الشريفين في مكّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، قد عقدوا العزم على تطهير المشاعر من البدعة والخرافة، التي لا تليق بالعقل، ولا تتماشى مع واقعية الدين، وبُعده عن الطلاسم والرموز، والإفراط في الروحانيات المفتعلة، ولذا نجد أنه، بفضل الله تعالى، ثم بجهود الواقعيين من القيادات العلمية

والسياسية، تخلو هذه البلاد من تلك "الطقوس" التي أُدخلت في الدين، وهي ليست منها، كالأضرحة والمزارات والقبوريَّة، وغيرها.

ما ينطبق على هذه المجالات ينطبق، كذلك، على محاولات بائسة، ويائسة في الوقت نفسه، تريد أن تستغلَّ هذه الشعيرة المباركة، في سبيل الترويج لأفكار، ليست هي موضوع إجماع المسلمين، بل إن التفكير العميق الموضوعي المتجرِّد فيها قد يقود صاحبها إلى التخلِّي عنها، نظرًا لما تجلبه من الفتنة وتفريق الجماعة، وإثارة القلق في الصفِّ الواحد. وعندنا – على أي حال – أن درءَ المفاسد مقدَّم على جلب المصالح. هذا إذا كان في هذه الممارسات مصالح. ولو كان فيها من المصلحة ما يتَّضح للقيادات لما تردَّدوا في تبنِّيها، وتشجيعها، والدعوة لها، فما عهدنا هذه القيادات تُحجم عن أي شيء فيه مصلحة لهذه الجموع المباركة.

بعيدًا عن المغالطات، والخلط في الأفهام، والاجتهادات غير الصائبة، غالبًا، يجدر بالقيادات السياسية والعلمية في هذه البلاد أن تستمرَّ على موقفها الحازم في تنظيم الحجّاج في المشاعر المقدسة، وإفادتهم من الإمكانات المتاحة لهم، وعدم السماح لأي نشاط يعكِّر هذا الصفو، مما هو مدرَكٌ بالمشاهدة المباشرة.

إن هذا الدين، بجميع جوانبه، لا يؤخذ بالعاطفة المجرَّدة، كما مرَّ التوكيد عليه، ولا ينبني على الشعارات المستحدثة، ولا ينبغي أن يُتَّخذ وسيلة للهروب بالناس من وقفات عقلية، يعمل فيها الفكر عمله، فيقبل ما يتَّفق مع الفطرة والنصوص الشرعية،

ويرفض ما يتنافى مع الفطرة والنصوص الشرعية، هكذا وبهذه البساطة، فما جاء هذا الدين لفئة من الناس دون أخرى، ولم يقتصر فهمه على طائفة من الناس دون أخرى، وليس فيه ألغاز، ولا يخضع للسراديب والخفايا، ومن يرد الله به خيرًا يفقّهه في الدين.[1]

* * *

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين. حديث رقم ٦٩. ورواه مسلم في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة. حديث رقم ٧٢١.

الوقفة الثانية عشرة

الداعمون في الحجِّ

تأمين الحجّاج مسؤولية كبيرة تقوم بها الدولة بكافّة قطاعاتها، وحريٌّ بالمرء أن يقف عند كل قطاع من قطاعات تأمين الحجّاج من الجهات الأمنية والصحية والتجارية والبلدية، وغيرها. فيحتاج المرء الوقوف وقفات عدة.

١. الجوَّالة:

من هذه القطاعات التي نراها أمامنا رأي العين أولئك الشباب ذوو الزيِّ الخاصِّ، الذي عرفناه في أولى خطواتنا نحو التعليم النظامي، شباب الكشَّافة والجوَّالة، المتطوِّعون لخدمة ضيوف الرحمن، يقومون بجهود تذكر، فتشكر، في تنظيم الحجّ والحجّاج. وكم رأينا شابًا من شباب الكشَّافة يقود حاجًا كبيرًا تاه عن "ربعه"، أو مريضًا خرج من عيادة، أو واقفًا أمام محلٍّ تجاري يسهم في مراقبة الأسعار، وغيرهم كثير.

- منذ الثمانينات الهجرية، الستينات الميلادية، وجهود هؤلاء الشباب الرجال مشهودة في المشاعر المقدسة، حيث كانوا في ذلك الوقت لا يزيدون عن مئة (١٠٠) كشَّاف وجوَّال. وزاد عددهم في موسم حجٍّ سنة (١٤٢٦هـ) عن ألف (١٠٠٠) كشَّاف

وجوَّال وقائد. وهناك إحصاءات سنوية لجهود هؤلاء الشباب في مختلف خدمات الحجّ.

- إن من خير الأعمال أعمالاً يخدم فيها الشبابُ/ الرجالُ ضيوفَ الرحمن، في الأماكن والمشاعر المقدسة، ضاربين في ذلك المثل الحي الواقعي العملي لشباب هذا البلد الطاهر، الذين تركوا الدعة والخمول والهوان، وهبُّوا مع القيادة العليا، وهم على أفضل ما يكونون عليه من المودَّة والمحبة، يسهمون في ذلك كله في مجال تنظيم الحجّ، الذي أضحى هاجسًا، لا يغيب عن أذهان المسؤولين في بلاد الخير والبركة.

٢. السفارات:

• أن فكرة تنظيم الحجّ فكرة قائمة ومتجدِّدة، ولا تقف عند حدٍّ في الزمان، بل إن هذا الموضوع يشغل بال المسؤولين في هذه البلاد الطيبة، الذين جعلوا من خدمة حجّاج بيت الله الحرام هدفًا ساميًا من أهدافهم، التي يُعنون بها. وهناك إصرار على مواصلة التنظيم، وما يقتضيه من الجهد والمال والإمكانات، سعيًا إلى رضا الله تعالى، أوَّلاً، ثم تهيئة الجو الملائم لأداءٍ يتناسب مع هذا الركن العظيم، ثانيًا.

• أن هذا التنظيم يحتاج إلى تفاعُل المسلمين معه، بحيث يقدِّرون إنما هو صادرٌ لمصلحة الجميع، وإن ظهر للبعض القليل أنه قد يؤدِّي إلى مشقَّة، ومع النية الحسنة يزداد الثواب مع زيادة المشقَّة، على أن المشقَّة غير مقصودة لذاتها، ولكن قد يدعو لها ما

لا مندوحة عنه. فلابدَّ من فهم هذا من الجميع، والاستجابة له والتعاون فيه على البرِّ والتقوى. وبفضل من الله تعالى يجد المتابع أن هذه الروح هي السابغة على حجَّاج بيت الله الحرام.

• إن التعاون لا يقتصر على الوصول إلى المشاعر، بل إنه يبدأ مع التفكير بالحجّ، من حيث الاتصال بالسفارات وطلب التعليمات ودراستها، والتقيُّد بها، والالتزام بما فيها، لاسيَّما أنها صادرة من جهة ذات خلفية شرعية، وذات خبرة طويلة في هذه الشعيرة المباركة، وهذا يعني تكثيف هذه التعليمات، وتوافرها في سفارات المملكة العربية السعودية في كل مكان، وإرسالها إلى من يطلبها. ويظل التنظيم في الحجّ مطلبًا وهاجسًا في آن واحد، وتظلُّ الجهود قائمة والإصرار مستمرًا.

٣. أبحاث الحجِّ:

عندما ينتهي حجّاج بيت الله الحرام، ويبدأون بالعودة إلى ديارهم، يكون الوقت وقت التقويم والدراسة، والسعي إلى التطوير الذي لا يعرف الكلل، والذي أعلمه أن هناك تنظيماتٍ للحجّ تدرس من عدة جوانب. ويبدأ تطبيقها في سنين لاحقة، قد يمرُّ موسم أو موسمان أو ثلاثة وهذه التنظيمات لم تنتهِ، من حيث دراستها.

المهم، هنا، أن التنظيم في الحجّ لا يقوم من أجل التنظيم، بل من أجل تهيئة الجوِّ العام للحجّ، فمتى ما تبيَّن، علميًا، وجود ثغرات في التنظيم أعيدت دراسته مرة أخرى. ومتى ما تبيَّن عدم

جدوى تنظيم أُلغي، ومتى ما ظهرت سلبيات في تنظيم تفوق الإيجابيات أُلغي التنظيم، ولذا قام معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحجّ من الناحية العلمية، وقامت اللجنة العليا للحجّ، من حيث دراسة الأبحاث، ومعالجة المشكلات، التي سبق أن ذكرت أن حلولها واردة في تجمُّع فريد، في مكان واحد، وفي زمان واحد.

فالتنظيم إذًا تنظيم متحرِّك، قابل للمراجعة، حالما ينتهي الموسم، الذي طبِّق فيه، وهناك لجان تجمع الملحوظات، وهناك لجان تدرسها بعد نهاية موسم الحجّ. وتستعين هذه اللجان بجملة من الباحثين والدارسين، الذين يختلطون بالحجّاج، ويدرسون سَير الحجّ ميدانيًا في المشاعر، ويرصدون حركات الحجّاج من مشعر إلى آخر، وأقرب مثال على ذلك لحظة النفرة من عرفات وملاحظة المشاة وسَير السيارات، ونقاط التدفُّق، وغيرها مع زمن الوصول إلى مزدلفة، من حيث زمنُ الوصول، وما إلى ذلك.

يُذكر هذا الجانب من جهود التنظيم مشيدًا بالجهود التي يقوم بها معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحجّ التابع لجامعة أم القرى بمكّة المكرَّمة. وقد سبق لي أن وقفت على هذا المركز منذ زمن في جدة، وفيه من الباحثين والدارسين فريق من الرجال، يشعرون بالزهوِّ والارتياح، عندما يستغلُّون قدراتهم العلمية والبحثية لخدمة حجّاج بيت الله الحرام والمشاعر المقدسة، فينالون في ذلك ثواب الدنيا والآخرة.

مع دعم المركز والعناية به عناية خاصَّة، يطلب منه البحث في ملحوظات ترد من الميدان، وقد يتم تكليفه بدراسات بعينها،

ويستعين على دراستها بالمختصِّين من العلماء والباحثين والدارسين على مستوى الأفراد، أو مستوى عمل الفريق. ولا أظن أن هذه الأفكار تغيب عن ذهن المسؤولين عن المركز، أو المسؤولين مسؤولية مباشرة عن الحجّ وشؤونه، ممثلين في الهيئة العليا ووزارة الحجّ.

٤. الجمارك:

يفد إلى هذه الأماكن المقدَّسة مئات الآلاف من الحجيج، بل بدأ العدد يتخطَّى المليونين، في وقت واحد، ومكان واحد، وجميع هؤلاء القادمين ليسوا على مستوى واحد من الوعي والفهم والعلم. ومنهم فئة قليلة جدًا ممن يسيئون استغلال هذا الموسم المبارك، لا بالطاعة والعبادة وتحقيق الركن الخامس من أركان الإسلام، بل جاءوا ليجمعوا مالاً بطريق الحرام.

أرأيتم أبشعَ منظرًا من شخص لبس لباس الإحرام، مع ما يعنيه هذا اللباس، ثم تبيَّن أنه بلع مجموعة من "الكبسولات" المخدِّرة يبيعها في البلد الحرام، سواء أكان هذا في أشهر الحجّ، أم كان لقصد العمرة، في شهر رمضان المبارك، وغيره من شهور السنة؟ إن هذه إساءة وأيَّما إساءة لهذه الشعيرة المباركة، ولكنه الضعف، والشيطان الذي سوَّل لهم، وزيَّن لهم أعمالهم، وأَملى لهم. ومن هذا مشاركة النساء والأطفال، الذين قد لا يكون لهم ناقة ولا جمل.

فيهبُّ لهؤلاء رجال من أولئك الذين يسهمون في خدمة هذا البلد المبارك، ويوفِّقهم الله تعالى في كشف هذه الأحابيل،

وإيقافها عند حدِّها، وتسليمها للجهات الأمنية، التي ترى فيها رأيها، المستمدَّ من شرع الله تعالى في كتابه الكريم، وسنة نبيه محمَّد بن عبدالله ﷺ. إن هؤلاء الرجال والنساء الذين يقفون على المنافذ والمداخل إنما هم فرسان، وأي فرسان، هم فرسان المنافذ الذين أكسبتهم التجربة حسًّا ثاقبًا وقدرات فراسية، في تتبُّع من يهرِّبون السموم، التي لا تنفع، من قريب أو بعيد.

هؤلاء هم رجال الجمارك ونساؤه الذين يتفانون في أدائهم، يدفعهم لهذا التفاني حبُّهم لهذا الوطن، الذي يرون في حبِّهم له امتدادًا لحبِّهم لهذه المقدَّسات المباركة، التي يسهمون في خدمتها. وهذه وقفة إطراء وثناء لهم جميعًا في أي مكان كانوا، وشدٌّ على أيديهم المباركة، ليبذلوا المزيد من الجهد، فيضْحوا ترسانة هذا البلد أمام الترويج، من أي جهة قَدِمَ. وتحية لذلك الرجل الذي يدعمهم بتشجيعه، وبتمثيلهم أمام المسؤولين، والحصول لهم على ما يستحقُّونه من تقدير مدير عام مصلحة الجمارك، الذي يستحقُّ منا جميعًا الثناء والشكر، ومن ثمَّ الدعاء له ولإخوانه وأخواته العاملين معه في الجهاز وعلى المنافذ بالتوفيق والسداد، وأن يجعل ما يقومون به من جهد في ميزان أعمالهم، وأن يخلص لهم العمل، ويحسن لهم النية. ولنا معهم كذلك.

٥. الجوازات:

لا يملك المتابع في هذا الموسم المبارك ألاَّ يذكَر بالشكر لهذه الجهود الطيبة، التي يقوم بها رجال الجوازات على مداخل هذا البلد المترامي الأطراف، فهم المدخل إلى الوطن، يقدِّمون للقادمين

صورة عن الناس في المملكة العربية السعودية، فإن رحَّبوا بالحجّاج واحتفوا بهم وسهَّلوا لهم مهمَّات الدخول، فهم أحسنوا التقديم، ليس لمرفق الجوازات في وزارة الداخلية، ولكن لهذا الشعب السعودي المسلم، الذي أضحى محطَّ الأنظار من جميع المسلمين.

أي حاجٍّ، ذكرًا كان أم أنثى، يصل إلى حدود البلاد، برًّا أو بحرًا أو جوًّا، إنما هو يدخل أرض المقدَّسات، وهو يرى أمامه أحفاد أولئك الرجال والنساء، الذين حملوا الإسلام إلى العالم، إنهم ينظرون إلى الشعب السعودي على أنه امتداد لجيل محمَّد بن عبدالله ﷺ، ففيه المهاجرون والأنصار، وفيه الفاتحون الذين نشروا الإسلام. هذه الانطباعة تضفي على رجال الجوازات – أوَّل ما يواجه الحاجُّ – مسؤولية كبيرة هم أهل لها. وهم يدركونها، ولا بأس من تذكيرهم بها، لاسيَّما أنهم يواجهون مختلف الجنسيات، ومختلف اللغات، ومختلف الطبائع، التي تنبني عليها مختلف التعامُلات.

هم مطالبون بالصبر والأريحية، وإن واجهوا الإساءات من حالات فردية، تَعكِّر مزاجها، بسبب السفر. والسفر، مهما كان، يظل قطعة من عذاب. وهم مطالبون بالتعامُل، أيضًا، في حدود الأنظمة المرسومة التي تقتضي إجراءات متعارف عليها دوليًا، مع مسحة من اللطف المطلوب، وحسن المعاملة والتعامُل، وقدر كبير من التحمُّل والصبر والرفق.

إن كان هذا معلومًا عند القدوم، فهو كذلك عند المغادرة، ونلمس ذلك واضحًا من رجال الجوازات عندما نراهم يودِّعون كلَّ حاج وحاجة بهدية خالدة، تعبِّر عن نهج هذه البلاد وتوجُّهها، في

خدمة كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمَّد بن عبدالله ﷺ، وذلك من خلال إهداء الحاجِّ المغادر نسخة من كتاب الله تعالى، طُبعت في مدينة الرسول – عليه الصلاة والسلام –. هذا الإجراء يفرض الاحترام والتقدير لكل من يعملون في هذا المرفق المهمِّ، بمتابعة مباشرة من رجل الجوازات المنجز.

٦. الصحَّة:

في سنين قريبة سبقت هذا الموسم كانت هناك عواملُ مناخية، ساعدت على وقوع حالات متعدِّدة، بسبب من حرارة الجو، مما أدَّى إلى سقوط بعض الحجّاج تحت وطأة ضربات الشمس، وهذا حدا بوزارة الصحَّة، والجهات الأخرى، إلى تكثيف العلاج بالأجهزة والمتخصِّصين، مما لم يُشهد له مثيلاً في أي مجتمع آخر. كما أدَّى هذا إلى ضرورة أن يُبدع أطبَّاؤنا في علاج هذه الحالات أكثر من غيرهم، لأنهم يتعاملون معها عمليًا، بعد أن تعاملوا معها نظريًا.

جمعية الهلال الأحمر السعودي لها جهود في هذا الموسم المبارك تذكر فتشكر، إذ تعين في الحالات الإسعافية، وتتولَّى توصيلها إلى أقرب مركز طبِّي، رغم الزحام الذي تشقُّه سيارة الإسعاف. وهذا بحدِّ ذاته جهد يبعث على الاطمئنان للمصاب. إذ إنه بمجرَّد كونه في سيارة إسعاف يدرك أنه – بإذن الله – تحت رعاية صحِّية، ويطمئن كذلك ذووه عندما يحمل في السيارة المخصَّصة لنقل المصابين.

لسنا هنا ننكر البعثات الطبية التي ترافق حملات الحجّاج من الداخل أو الخارج، فالجميع يسهم في الوقاية قبل العلاج، ولهم من الجميع الثناء العطر، فجزاهم الله عن حجّاج بيت الله الحرام خير الجزاء، ووفقهم إلى الخير.

٧. النقل:

تتولى وزارة النقل الاهتمام بالنقل وشؤونه، على مدار السنة. وتسعى إلى تطوير وسائل المواصلات وطرقها في المشاعر. وتجري لذلك الدراسات، وتستعين بالله تعالى ثم بالمستشارين من أبناء هذا البلد الطيِّب، ومن زملاء آخرين متخصِّصين في النقل، وهو فرع من فروع علم الجغرافيا. يدرس هؤلاء الأكاديميون مسألة النقل في المشاعر، دراسة نظرية، قائمة على تجارب عملية سابقة. وكل سنة يسعون إلى الأفضل بمباركة من الوزارة، وتسهيل للمهمات، وتذليل للعقبات، وتهيئة لما يطلب تهيئته.

ثم بعد هذه الدراسات ينتقل الرجال إلى الميدان، بعد خطوات تطويرية، ثم يرقبون مرئياتهم مطبَّقة، عمليًا، على الواقع، فتلتقي النظرة العلمية مع التطبيق على الواقع، يسجِّلون من خلالها مدى النجاح الذي يلقاه كل مشروع جديد من مشروعات النقل في الحجّ، ثم يقوِّمون التجربة ويطوِّرون ما يطوَّر منها، ويحذفون ما يستدعي الحذف.

أعلم أن بعضًا من الناس لا يعرفون عن هذه الجهود معرفة كافية، لأنها جهود تقوم على البعد عن الأضواء، مثلها في هذا مثل

معظم الجهود غير المرئية لكافّة الناس. وهذا لا يغيِّر كثيرًا ما دامت النوايا طيِّبة، وما دام الإخلاص متوافرًا، وهذا ما أحسبه في هؤلاء الرجال، الذين يهمُّهم جميعًا رضا الله تعالى أوّلاً، ثم رضا ولي الأمر، الساهر على راحة ضيوف الرحمن، إذ يجد من يعينه – بعد الله تعالى – على هذه المهمَّة النبيلة.

٨. الإعلام والحجُّ:

الملحوظ أنه في هذا الموسم المبارك تجنِّد وزارة الثقافة والإعلام والمؤسَّسات الصحفية الطاقات والجهود، في سبيل إعطاء هذه المناسبة ما تستحق من التغطية الإعلامية، ومن استغلال هذه الوسائل النافذة في التوعية في الحجّ، على مختلف الصُّعد، فهناك الأحاديث الدينية التي تبيِّن الأحكام في الحجّ، وهناك الفتاوى من العلماء الموثوقين، الذين أصبحت لهم كلمة في مجال العبادات والمعاملات، يبيِّنون للناس ما خفي عليهم، من خلال إجاباتهم على الاستفتاءات والأسئلة التي يستفيد منها الحاج. وهناك طلبة العلم، ومن نسمِّيهم بالمفكِّرين، الذين يتحدَّثون عن عموميات الحجّ، والحكمة منه، والمتوقَّع منه موسمًا مباركًا، موحِّدًا للمسلمين جميعًا.

إنها لجهود تذكر فتشكر، تنمُّ عن قدر من الوعي والشعور بالمسؤولية، تجاه هذا الموسم، الذي تميَّزت به هذه البلاد الطيبة الطاهرة، فعطَّلت الوزارة مجمل برامجها، في دوراتها العادية، وركَّزت على خدمة ضيوف الرحمن في المجال، الذي تجيده وتحسن فيه.

٩. الدعوة:

تسهم وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في مجالي الدعوة والإرشاد، وتستعدُّ للموسم بالخطط المرسومة، وباللجان العليا والتحضيرية والتنفيذية، وتدرس الوزارة احتياجات الموسم من الدعوة والإرشاد، فتهيِّئ لذلك الدعاة من العلماء وطلبة العلم، تستقطبهم من الجامعات والجهات الإسلامية الأخرى، التي يكثر فيها الدعاة والعلماء وطلبة العلم، مثل وزارة العدل والرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، في جانب الدعوة والإفتاء.

لا بأس من التداخُل بين الدعوة والإفتاء، إذا كان فرسان الدعوة من العلماء، الذين يملكون ناصية الإفتاء. وعامة الناس قد لا يفرِّقون بين الداعية والمفتي، رغم ما يقال إنه ليس كل داعية مفتيًا، وليس كل مفتٍ داعية، إذ إن الذين لا يريدون الربط بين هذين المجالين يقولون إن الدعوة لازمة على كل مسلم، أي أن كل مسلم داعية بحكم انتمائه للإسلام، والمصطفى ﷺ يقول: «بلِّغوا عني ولو آية».[1] وعليه فإمكانية الدعوة أيسر بكثير من إمكانية الفتيا.

لا يعني هذا الاستخفافَ في مجال الدعوة، إذ لابدَّ من العلم قبل كل شيء، ثم الأسلوب والمنهج، وإمكانية الاتصال بالناس،

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. حديث رقم ٣٢٠٢.

والصبر على مخالطتهم. ومؤهِّلات أخرى علمية مكتسبة وذاتية فطرية، ومع هذا فإن مجال الدعوة أوسع وأشمل من مجال الفتيا. ولا يتسنَّم مجال الفتيا إلا العالمون والفاقهون، لئلا يُفتى الناسُ بغير علم، فيَضلوا ويُضلوا.

لذا نجد أن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد تهتم في هذا المجال الدعوي الحيوي في موسم الحجّ، وتبيِّن للمسلمين جميعًا حكمة هذا الموسم، والمراد به ومنه، في أداء المناسك بهدوء تام وسكينة ووقار، بعيدًا عن تحويله إلى موسم شعارات ومهاترات، يسيِّرها الهوى الذي ينقله من روحانية مطلوبة إلى نشاط فكري ممجوج.

* * *

الوقفة الثالثة عشرة

منغِّصات في الحجّ

الأصل في موسم الحجّ أنه صورة حية عملية لوحدة المسلمين، تتكرَّر كل عام، منذ أن فرض الله تعالى الحجّ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ويتحمَّل القائمون على خدمة الحرمين الشريفين بمكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة مسؤولية تأمين الحاجّ، منذ دخولهم الأراضي التابعة للحكم القائم على الحرمين، ولا يتكفَّل القائمون على الحجّ بما هو "خارج الحدود" من مشكلات تتعلَّق بالزاد أو الراحلة.

١. الشعارات:

من المؤلم أن تظهر في هذه المواسم المباركة بعض الحركات التي ضلَّت الطريق، وأرادت تطويع هذا الموسم لمعتقدات وشعارات، لا تتماشى مع روح الحجّ. ويلجأ هؤلاء إلى التنغيص على الحاج، بفرض نمط غريب على الحاجّ والحجّ. وما علمنا بهذا في سيرة سلفنا الصالح. والمؤلم أيضًا أن الذي لا يتَّفق مع هذه المنهج الذي سار عليه سلف الأمَّة قد يفهم من ذلك بأنه فصْلٌ بين الدين والسياسة. وهذا أمر غير وارد على الإطلاق، إذ إن خطيب يوم عرفات لابدَّ أن يتعرَّض للجوانب السياسية التي تتعرَّض لها الأُمَّة في حينه، ويكون التوجيه عامًا داخلاً في المفهوم الإسلامي للسياسة، وليس للمفهوم الحركي الحديث للسياسة.

ليس من الحكمة فرضُ وجهة نظر، أو رأي على جميع الحجّاج، فالحجّاج يحجّون على ما هي عليه المناسك، ويتلمَّسون تحرُّكاتهم من علماء الأُمَّة. ولذا فإن محاولة بعض العناصر الشاذَّة إنما تبؤ بالفشل؛ لأنه يراد لها أن تفشل. وأظنه من مسؤولية القائمين على خدمة الحرمين الشريفين التوكيد على هذا الفشل المستمرَّ بصرامة، ودون مواربة، وبوضوح تام. فليس موسم الحجّ موسمَ تسويق للأفكار، التي يكفي فيها أنها ليست موضع اتفاق من المسلمين، الذين ضربوا أكباد الطرق من أجل تحقيق ركن من أركان الإسلام، لا من أجل الوقوف على أفكار غريبة، تستغلُّ موسم الحجّ بالشعارات والهتافات، وما إلى ذلك، مما لا يتماشى مع السمت المراد في الحجِّ. وليت هذه العناصر المزعجة تستجيب لنداءات المسلمين، في إتاحة المجال لعبادة خالصة لله تعالى، بعيدة عن أغراض الدنيا والتشفّي من الآخرين.

إن من عقيدتنا نحن المسلمين البراء من المشركين بنص القرآن الكريم، ولكن هذا البراء لا يتمُّ بالقول دون الفعل. إننا نبرأ إلى الله من المشركين قولاً وفعلاً، وفي الوقت ذاته، وفي إطار هذه البراءة نستفيد منهم، فنأخذ منهم ونعطيهم، دون خدش لمفهوم البراءة.[1] ولعل هذه العناصر المزعجة التي تبحث عن البراءة من

---

(١) الولاء والبراء مفهوم شرعي محدَّد علميًا، وفيه تفصيل للعلاقة مع الآخر من هذا المنطلق، إلا أن هناك جدلاً قائمًا حول استخدامه على الواقع، مما يؤثّر على معناه العلمي الشرعي، وهناك تفسيرات متشدِّدةٌ، وأخرى أكثرُ =

المشركين تبلغهم هم في عقر دارهم أنها بريئة منهم، عندها ستُبرز الوثائق التي تناقض هذا الادعاء.

إن الإسلام بريء من الشعارات، بريء من فرض الآراء الجانبية، بريء من سيطرة توجُّه على حساب توجُّهات أخرى. وتزداد البراءة إذا ما كان هذا التوجُّه المراد سيطرته على حساب التوجهات الأخرى، مما هو مشكوك في صحَّته وفي أصالته وفي منبعه.

إنه يحقُّ لكل حاجٍّ أن يعيش هذه الأيام المباركة في المشاعر بأمن واطمئنان وسكينة، ويحقُّ للقائمين على خدمة الحجّاج أن يسعوا جادِّين جاهدين إلى توفير الأمن والاطمئنان والسكينة. مهما كلَّف ذلك من جهود. وحقٌّ على المسلمين جميعًا أن يضعوا أيديهم مع أيدي هؤلاء القائمين على خدمة الحجيج، فيمنعوا مثل هذه المهاترات أن يكون لها مكان في مواسم الخير والبركة، بغضِّ النظر عن مصدرها وغاياتها ومنطلقاتها، ما دامت لا تنطلق من مسلَّمات المسلمين في الحجّ وفي الحياة كلها.

٢. الأمن في الحجّ:

جاءت المادة الرابعة والعشرون من النظام الأساسي للحكم في

=

تسامُحًا، وتدعو إلى التسامح في التعامل مع الآخر، لاسيَّما الذين ليسوا في حالة حرب مع المسلمين، وهذا ما يتبنّاه هذا الكتاب. انظر في مناقشة هذا المفهوم: محمَّد بن سعيد بن سالم القحطاني. الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف. — الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥/١٩٨٥. — ٤٧٦ ص.

المملكة العربية السعودية مؤكّدة مسؤولية الدولة العربية السعودية في الاهتمام بالحجّ والحجّاج، وجعلت هذه الشريعة – الركن الخامس من أركان الإسلام – جزءًا مهمًّا من أدائها تجاه العالم الإسلامي، ونصُّ هذه المادة كما يأتي: «تقوم الدولة بإعمار الحرمين الشريفين وخدمتهما وتوفير الأمن والرعاية لقاصديهما بما يمكّن من أداء الحجّ والعمرة والزيارة بيسر وطمأنينة».

لست بصدد الوقوف عند كل كلمة، إلا أن المقام يستدعي الوقوف عند جزئية، أو كلمة واحدة من المادة، وهي ما يتعلّق بالأمن في الحجّ، مع ما تقتضيه هذه الكلمة من إجمال في مدلولها. والأمن في الحجّ من أهم مقوِّمات الحجّ، ليس في المشاعر فحسب، ولكن حتَّى في الطريق إليها، وقبل أن تنصَّ هذه المادة على هذه الناحية والدولة تضطلع بهذه المسؤولية، منذ أن توحَّدت البلاد تحت كيان المملكة العربية السعودية.

من المؤسف أن تظهر بعض الممارسات، التي تسعى إلى الإساءة إلى هذه الجهود الملموسة، وقد يتمثَّل ذلك في مظاهرَ، أو أساليبَ منها:

- احتراف الشحاذة في هذا الموسم المبارك، ومزاحمة الناس في شعائرهم، واستدرار عطفهم، بالإعاقة والعاهة، ويأتي هؤلاء المحترفون على أنهم حجّاج.
- احتراف النشل من الحجّاج، سواء النشل المباشر بالأخذ من الجيوب والحقائب والأمتعة، أم النشل غير المباشر، بسوء

استغلال الحاجّ، وسلبه ما معه من مال، سعى إلى توفيره منذ زمن لغرض الحجّ.

بحكم المادة المذكورة، المطبَّقة منذ مدة سبقت صياغتها في نظام، تقوم الأجهزة المعنية بحماية الحاج من كل هذا، وتنفق في سبيل ذلك الجهد والمال والوقت، وتنال من الحجّاج المباركة والدعاء بالتوفيق والسداد، بل إن الحجّاج عندما يرون هذا الحزم يتفاعلون معه، ويتعاونون مع الأجهزة الأمنية بما يسمح به النظام من التعاون، وهذه أريحيَّة طيبة، ومطلوبة لأنها داخلة في مفهوم التعاون على البر والتقوى.

كل حاجٍّ، يقف في هذه الأيام المباركة على الجهود المبذولة، يدرك إصرار الدولة على أن تجعل من هذه الشعيرة متعةً في العبادة، تذلِّل لها جميع الصعاب، وتغني الحاج عن الانشغال بها، لتكريس وقته وجهده في التوجُّه إلى الله تعالى بالدعاء والعبادة. وتشعر الدولة بالسعادة وهي تقوم بذلك، لما تنتظره من الله تعالى من الثواب في الدنيا والآخرة. ولذا لم تقتصر المادة على الأمن فحسب، بل شملت المادة الرعاية لقاصدي الحرمين، من الحجّاج والمعتمرين والزائرين.

لقد جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، ودعا له إبراهيمُ الخليل – عليه السلام – بأن يجعله آمنًا، وأن يرزق أهله من الثمرات، هذا بعد أن أسكن من ذريَّته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرَّم، ولذا تأتي حرمة البيت العتيق، فلا يُصطاد فيه، ولا يُقطع زرعه وشجره، بل ولا يُقاتَل فيه حتَّى يقاتِل الباغيُ فيه،

فيقاتَل. وكل هذا آتٍ من نصٍّ كتاب الله تعالى، ثم سنة نبيه محمَّد بن عبدالله ﷺ.

من الأجهزة المهمة العاملة في هذا الموسم المبارك الأجهزة الأمنية، على اختلاف مهمَّاتها، من المرور والدفاع المدني والأمن العام، والجهات الأمنية الأخرى. ويستعرض سمو وزير الداخلية الأمير نايف بن عبدالعزيز جاهزية هذه الجهات، قبل يوم التروية بأيام، إشارة إلى استعدادها لبسط الأمن والأمان على كل حاجٍّ وحاجَّة، أتيا من كل فج عميق، ليشهدا منافع لهما، ويذكرا اسم الله في أيام معلومات. وتشعر هذه الدولة الموفَّقة بمسؤوليتها تجاه حجّاج بيت الله الحرام في كل المجالات، بما فيها تيسير الأمن، بحيث يخرج الحاج بين المناسك وهو لا يخاف إلا خوفه الإيماني من الله تعالى، الذي هو جزء من توحيد الله تعالى بالعبادة.

عندما تعلن سلفًا عن عدم جواز نقل المنشورات من كتب وصور ونشرات وأشرطة، ونحوها، مما يراد منه تعكير صفو الحجّ والحجّاج، وتبدي وزارة الداخلية استعدادها التام للتصدِّي لذلك، دون مواربة ولا تقاعُس، وأن حاجًا واحدًا من حجّاج بيت الله هو مسؤولية الوزارة، وأجهزتها العاملة في المشاعر. وهذا موسمٌ من نوى فيه الحجّ فهو مطالب بالابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، بنصِّ القرآن الكريم: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾. (البقرة ١٩٧).

بعد أن يبين العلماء والفقهاء والدعاة مقاصد الحجّ، تأتي قوَّة السلطان في فرض جوٍّ آمن للجميع. وتأبى هذه البلاد، منذ توحيدها، على أن يكون الحجّ أيَّ موسم غير موسم العبادة، كما تصرُّ على القضاء على كل شائبة تشوب أداء المناسك.

إن الإنسان ليفخر، حقًا، عندما يجد رجال الأمن يقفون في كل مكان، يطمئنّون على السير السمح للحجّ، ويسعون إلى إزالة أي عقبة، قد تعيق مسيرة الحجّاج. وأزعم أنهم يشعرون بالفخر والاعتزاز، عندما يخدمون ضيوف الرحمن، في مجال اختصاصهم ومسؤولياتهم. بل إن المواطن ليفخر عندما يرى شباب كلية الملك فهد الأمنية، وهم لا يزالون في طور الإعداد، ينزلون إلى الميدان في المشاعر، فتكون أولى ممارساتهم العملية خدمة حجّاج بيت الله الحرام.

إن المواطن ليفخر عندما يشعر أنه هو، شخصيًا، رجل من رجال الأمن، لاسيَّما الحجّاج من المواطنين، الذين يغارون على هذه الشعيرة، ويدركون كل ما ينفق على هذا من جهود وإمكانات واستعدادات. ولست بهذا استبعد المرأة من هذا، فهي في مجالها، أيضًا، تسهم في هذه المسيرة المباركة بين أترابها وأخواتها الحاجات، وتشعرهن أنها تهتم بالأمن كما يهتم غيرها.

٣. رعاية الدولة:

الرعاية لفتة طيِّبة جاءت في نظام ملزم للدولة من الدولة نفسها، أي أن الدولة ألزمت نفسها برعاية عباد الله تعالى في

الحرمين الشريفين والمشاعر المقدَّسة الأخرى. وفي هذا تطمين لهؤلاء العباد على أنهم موضع الاهتمام والعناية. وهذه نعمة من الله تعالى تستحقُّ شكرها، ثم شكر من سخَّرهم الله تعالى، وسخَّر لهم خدمة الحرمين الشريفين.

عندما ينصُّ نظام الدولة، أو النظام الأساسي للحكم، على رعاية الحجّاج والمعتمرين والزائرين، فإن هذا يعني، ضمنًا، أن هذه المسؤولية مناطةٌ بهذه الدولة فقط، بل إن هذه الدولة ستعمل على القيام بهذه المهمة، دون الحاجة إلى أي مساندة من أي جهة، وهي، ولله الحمد، قادرة على ذلك، مصمِّمة عليه، مذلِّلة له كل الصعاب المادِّية والمعنوية. وتستمرُّ في دراسة هذا الموسم على مدار العام، لتقديم خدمة أفضل، بعد الاستفادة من الملحوظات التي تتلقَّاها من العاملين، ميدانيًا، على خدمة حجّاج بيت الله الحرام وزائري المسجد النبوي الشريف، وذلك من خلال معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحجّ بجامعة أمِّ القرى بمكّة المكرَّمة. وهذا واضح ملموس من خلال هذه الجهود الواضحة للعيان، مما يجعل الحاجَّ والمعتمر والزائر في حلٍّ من التزامات كثيرة جدًا قد يتوقَّعها عندما يؤمُّ المشاعر المقدسة، بل إن الخدمات تخطَّت الضروريات إلى الكماليات.

٤. تعاوُن الحجَّاج:

يبقى التعاون من الحجّاج والمعتمرين والزائرين أنفسهم في الانصراف إلى العبادة، واستغلال قدسية الزمان والمكان، والابتعاد عن الفسوق والجدال في الحجّ. فاليسر والطمأنينة هو

هدف تسعى إليه الدولة، وتلزم نفسها، نظامًا، بالوصول إلى هذا الهدف، مستعينة بالله تعالى، ثم بجهود أبنائها العاملين في شتى المجالات، التي لا يتَّسع المقام لذكرها هنا، ثم هي تلزم نفسها بالحيلولة دون أي عامل من العوامل الخارجية، التي تحول دون تحقيق هذا الهدف، أو تُعكِّر صفو الحجّ والمناسك فيه.

حريٌّ بالحجّاج والمعتمرين والزائرين أن يقدِّروا هذه الجهود، وأن يباركوها، بالدعاء للقائمين على خدمة الحرمين الشريفين، بالتوفيق والسداد، والمزيد من الإنجاز في المشروعات والخدمات، والسعي إلى استمرار التطوير في شتَّى مناحيه المادِّية والمعنوية، المتمثِّلة في تكثيف حملات التوعية أثناء الحجّ، بحيث يجد الحاجُّ الأمان في الأداء، عندما يجد من يجيب على أسئلته وإشكالاته، من خلال وجود ثُلَّة من العلماء وطلبة العلم العاملين بالحجّ، من ذوي الاختصاص والقدرة على الفتوى.

٥. تعمُّد الإعاقة:

من ضمن المرتادين للمشاعر المقدَّسة أولئك المعوقون الذين يريدون أن يحظوا بالوقوف بين يدي الله تعالى، مستغلِّين فضل الزمان والمكان، والتركيز هنا على المعوقين إعاقات جسدية، لاسيَّما أولئك الذين فقدوا نعمة المشي، فاستعانوا بالله وصبروا واحتسبوا، ثم استخدموا الأجهزة المساعدة من كراسي درَّاجة أو عكَّازات أو غيرها. ومنهم من جاء للصلاة في الحرم، صلاة الفروض والقيام، وهؤلاء أمرهم أيسر من أولئك الذين جاءوا

للطواف والسعي، ناوين عمرة في شهر تعدل فيه العمرةُ حجّةً مع الرسول الحبيب محمَّد بن عبدالله ﷺ.

بين مليونين ومئتي ألف من مرتادي المسجد الحرام تصعب الحركة على القادرين على المشي، فما بالك بأولئك الذين لا يقدرون عليه، ومع هذا فهم في رغبة ملحَّة للتمتُّع بهذه العبادة مع سائر الناس.

قد ظهرت الصحف بخبر مفاده القبض على موظَّف في بلد إسلامي يمنح تأشيرات عمرة للشحَّاذين، فلا يأتون على ما يظهر للعبادة وأداء العمرة، بل يأتون ليتكفَّفوا أيدي الناس. وهذا يعني الحرص على أي شكل من أشكال الإعاقة، قصدًا إلى استدرار عطف الناس، ولو أدَّى الأمر إلى تعمُّد الإعاقة الدائمة، وليس المفتعلة، والعياذ بالله. ويعلم هؤلاء سلفًا أن أهل هذا البلد الطيب يحبُّون الخير، فينفقون رجالاً ونساءً، صغارًا وكبارًا. ويأمل الشحَّاذ من هؤلاء أن يجمع حصيلة سنة كاملة، إن لم يزد على ذلك.

في سبيل ذلك يتعمَّد هذا الشخص التخلُّف من شهر رمضان المبارك إلى الحجّ، رغم أن تأشيرته إنما أعطيت له نظامًا للعمرة فقط، ذلك ليتيح المعتمر المجال للآخرين، من الخارج والداخل، لكن هذه الفئة تزاحم الناس، وتدور بينهم، كاشفة عن مواطن الإعاقة، عارضة إياها على الصغير والكبير. ويعيشون حول الحرم مدَّة طويلة، وهم ليسوا بحاجة إلى العيش بهذا الأسلوب، الذي لا

يعطي صورة مشرِّفة عن المسلم، وهي كذلك أسلوب لا يتماشى مع ما وصلت إليه هذه البقعة المباركة من عناية ورعاية وتنظيم.

سيظل هناك محتاجون يسألون الناس، ومحتاجون لا يسألون الناس إلحافاً، وهؤلاء هم الذين ينفع بهم ومعهم فعل الخير، ذلك أنهم وصلوا إلى مرحلة عجز لم يكن لهم فيه يد، إلا أن الأمر يختلط على الناس، فلا يدري المنفق مَن يعطي، ولا يعرف الباذلُ الصادقَ من الكاذب. والباذلون مطالبون بتحرِّي الصواب، حتَّى لا يعينوا محتالاً على احتياله، وحتَّى لا تضيع نفقاتهم في أيدي من لا يستحقونها.

مع الجهود المبذولة للقضاء على هذه المشكلة من قبل الجهات المعنية، إلا أنها ستظل مشكلة ترتبط بعدة جهات خارجية وداخلية. وستظل مشكلة تعكس مدى الوعي الذي ينقص كثيرًا من ضعاف النفوس، الذين يتاجرون بإعاقة الآخرين، في سبيل الحصول على مال لا يستحقونه، بل إنهم يحجبونه عن مستحقيه، لاسيَّما إذا علمنا أن هناك تنظيمًا لهذا الأسلوب غير الحضاري، وهناك من يتعمَّد صنع الإعاقة وتشويه البشر، قصدًا إلى توجيههم إلى حيث يكثر أهل الخير من المسلمين، وكثير من الناس يبذل وهو يقول: ليس لي إلا الظاهر، لما يعيشه من حيرة بين الرغبة في فعل الخير والشفقة على هذا المعوق، وبين ذلك الشعور الذي يرنُّ في مخيِّلته أنه أمام محتال ليس له إلا الطرد من هذا المكان المبارك.

الباذل يكون جهة من تلك الجهات التي ستسهم في التغلُّب على هذه المشكلة، إذا اجتهد في تحرِّي الصواب، قبل إن يمدَّ يده

العليا لتلك اليد التي ربَّما كانت أكثر منه ثراء، ولكن بطريق غير مشروع. والناس أيضًا يشفقون على الشحَّاذ المحتال، ولا يرونه محتالاً؛ لأنهم لا يريدون أن يصدِّقوا أنه محتال، ولذلك تراهم يقفون إلى جانبه، إذا حاول أحد المعنيين منعه من مزاولة هذه المهنة.

إن هذه الفئة من متعمِّدي الإعاقة يضيِّقون على الناس، وهم لا يحرصون على العبادة أكثر من حرصهم على جني الأموال، فحري بالناس ألا يعينونهم على جني هذا النوع من الأموال.

٦. التخلُّف في الحجِّ:

المملكة العربية السعودية بلد مفتوح على العالم الإسلامي، يستقبل سنويًا الملايين من المسلمين، معتمرين وحجّاجًا وزوارًا لمسجد المصطفى محمَّد بن عبدالله ﷺ، وتجد هذه البلاد لزامًا عليها تسهيل ذلك وتيسيره على الجميع. وهي تعدُّ هذا واجبًا من واجباتها الدينية تجاه المسلمين، ذلك أنها دولة مؤتمنة على هذه الأماكن المقدسة. وهي دولة حديثة متطوِّرة محدودة الإمكانات، مهما كانت إمكاناتها، ولذا فإنها، وهي ترحِّب بالضيوف، تسألهم دائمًا أن يعودوا من حيث أتوا، بعد أن يُتمُّوا حجّهم أو عمرتهم أو زيارتهم، ولا تسمح لهم الأنظمة بالبقاء أكثر من المدَّة، التي أعطوا إياها لهذه الأغراض النبيلة.

الذي يحصل أن أناسًا من المسلمين يجدون فُرصًا في هذه البلاد، لا يجدونها في بلادهم، فتراهم يبقون كثيرًا بصورة غير نظامية، ولأنهم باقون بصورة غير نظامية تراهم يقبلون أي عمل

وبأي أجر، مما يؤثّر في النوعية، وفي الجودة، وفي حق الآخرين الموجودين نظامًا في العمل؛ لأنهم جاءوا للعمل.

هنا نجد أنفسنا، نحن المواطنين، ملزمين بالتعاون مع الدولة في الحدِّ من هذه الظاهرة، التي لا تقتصر آثارها على سوق العمل، بل قد يؤدِّي وجود هذه الفئة إلى أعباء أمنية واجتماعية تضرُّ بنا، وتسيء إلينا محليًا وإقليميًا ودوليًا. كما أنها تزاحم بوجودها المواطن الذي يسعى إلى وجود عمل تجاري أو صناعي يرتزق من ورائه، وعليه فإنه بتعاوننا مع الدولة في تفهُّم هذا الأمر ندفع هؤلاء إلى مغادرة البلاد، طوعًا قبل إن يُدفعوا إلى مغادرتها كرهًا، ونتفهَّم في الوقت نفسه الإجراءات التي تُتَّخذ لترحيل المتخلِّفين عن البلاد، ولا نتعاطف معهم بأي حجّة من الحجج، لأنهم، برحيلهم، يُتيحون لنا أن نرتِّب أنفسنا من الداخل، بحيث نستطيع الوصول إليهم، وهم في ديارهم بما نحمل من مشروعات استثمارية أو خيرية أو نحوها.

نحن حريصون على أن نتفهَّم هذا التوفيق العجيب بين الترحيب بالضيوف، ثم توديعهم بالحفاوة والتكريم، مع التوكيد على عدم بقائهم مدة أكثر من المدة النظامية المعطاة لهم. هذه النظامية التي فرضت هذا الإجراء الذي يسعى إلى تحقيق المصلحة العامة، ولو كانت على حساب مصالح شخصية فردية، والمواطن مطالب بالتعاون التام مع هذه الإجراءات، بحيث يصبح رجلاً من رجال الأمن الساهرين على استقرار هذا المجتمع الطيب.

لأن هؤلاء يجدون فرصَ العمل يتخلَّفون، ولأنهم يجدون من يؤويهم من المواطنين وغير المواطنين يبقون في البلاد، ومن غير المواطنين من يجرؤ على إيواء المتخلِّفين، وقد يكون هؤلاء أنفسُهم من المتخلِّفين.

لابدَّ من النظر في مشروعية البقاء بعد أداء النسك أو الزيارة، وهل يجيز المرء لنفسه البقاء في بلد لا تسمح ظروفها في بقائه أكثر مما يتوقَّع منه البقاء، وكيف يجيز لنفسه هذا وهو لا يجوز له، لاسيَّما أنه جاء من أجل العبادة والطاعة، ويدعو الله تعالى أن يقبل منه عمرته أو حجّه وصلاته في مسجد رسول الله ﷺ وزيارته له — عليه الصلاة والسلام —. والأصل أن ينظر للوافد لهذا الغرض أنه إنما جاء من أجله، ونستبعد موضوعيًا أنه جاء للعمل بتأشيرة حجّ أو عمرة أو زيارة، ذلك أنه يختم على جوازه بعدم السماح له بالعمل داخل البلاد، بأجر أو بغير أجر. أما من يريد العمل فإنه يجد من الإجراءات ما يخوِّله للعمل، أو المجيء للعمل، وينطبق عليه ما ينطبق على القادمين للعمل.

عليه، فإن التخلُّف لقصد العمل فعل غير مشروع، وربَّما كان هناك نظر في مكاسب التخلُّف المادية، من حيث مشروعيتُها كذلك، ولذا نجد أن الدولة تلجأ إلى مطالبة الحجّاج والمعتمرين والزوار بمغادرة البلاد، حالما تنتهي المدَّة المعطاة لهم لذلك، ذلك أن المسألة قد خرجت عن مجرَّد البحث عن عمل، فأصبح التخلُّف يقود إلى مشكلات أمنية واجتماعية واقتصادية، تربأ هذه البلاد أن تواجهها، كما تربأ هذه البلاد أن يواجهها المتخلِّف نفسه، وإن رضي

بذلك، فالبلاد تتوخَّى المصلحة العامة، وتقدِّمها على المصالح الفردية. ونطالب نحن المواطنون بالوقوف ضد هذه الظاهرة.

قد يكون عنوان هذه الوقفة قاسيًا، لاسيَّما أن المرحلة، الآن، هي مرحلة إقناع المتخلِّفين بالرحيل وديًّا، بعيدًا عن تطبيق النظام عليهم، بترحيلهم قسرًا. والذي تتمنى هذه الوقفة بيانه أن هذا الأسلوب الهادئ في الدعوة إلى مغادرة البلاد قد كانت له آثاره الإيجابية حتَّى الآن، وأسمع شكرًا للمتخلِّفين على تلبيتهم لهذه الدعوة، وعدم اللجوء إلى ما هو ممكن ومحتمل من استخدام الأحقية في ترحيل المتخلِّفين.

أسهم الإعلام، بأشكاله، في كشف هذا الوضع وبيان البرنامج الذي تتبعه الجهة الأمنية المعنية، الجوازات، في معالجة هذا الوضع، كما كشفت الصحف عن ممارسات عجيبة لهذه الفئة من الناس التي بحثت عن الرزق، بل الكسب السريع، على حساب النظام، وعلى حساب الصحة، وعلى حساب النظافة، وعلى حساب البيئة، وعلى حساب المنتجات الموثوقة من مأكول وملبوس، وغير ذلك من السلع الاستهلاكية.

إننا في هذا الإجراء الموفَّق نصطاد جملة من العصافير، بحجر واحد، ويكفي في الصيد أن تنظَّف البلاد من هذه الأساليب البدائية، في إنتاج الأغذية والألبسة، ثم بعد ذلك فتح المجال أمام أبناء هذا الوطن في الإسهام في تنمية البلاد، من خلال عملهم المباشر في مجالات كان يشكو أنه لا يستطيع العمل بها، بسبب وجود العامل الوافد، المتخلِّف أو المتستَّر عليه. ثم بعد ذلك الحدِّ من

نزيف الحوالات المالية، التي بلغت أرقامًا عالية، كادت تصل إلى سبعين مليار ريال سنويًا، وبالتالي توفير نسبة عالية من هذا المال لاستخدامه في الداخل، ويعني هذا ازدهار الحركة الاقتصادية بشكل أكثر فاعلية، وإيجاد فرص عمل أكثر للشباب من المواطنين... وهكذا، فالإيجابيات من وراء هذا الإجراء كثيرة، لا ننسى منها الإيجابية الأمنية التي ستتحقَّق – بإذن الله تعالى – من خلال الاستقرار الذي كادت هذه الفئة من هؤلاء المتخلِّفين والمتستِّر عليهم أن تسهم في هزِّه والإخلال فيه. والإيجابيات تراكمية، يتولَّد بعضها من بعضها الآخر، وكل إيجابية واحدة يتولَّد عنها مجموعة من الإيجابيات.

إن من حق الدولة أن تتَّخذ أيَّ إجراء يحفظ لها أمنها، ويوفِّر عليها اقتصادها، ويحمي لها مواطنيها، ذوي الأحقية في العمل، وفي الاستثمار في مجالات واسعة من مجالات الاستثمار. والدولة في وعيها لهذا الحق تعي كذلك أنها تتعامل مع بشر في بلاد كثيرة الفرص. جاء هؤلاء لجمع المال، وحدَّهم على ذلك ضعف توافر فرص العمل في مجتمعاتهم، ولم يأت قسم كبير منهم لما آل إليه حاله من تخلُّف وتستُّر، ولكنه لجأ إلى ذلك عندما لحظ أن الكسب من ذلك أكثر بكثير من العمل النظامي، ومع هذا كله فإن الدولة تحفظ لهذا الشخص كرامته، وتحترم فيه إنسانيته، فتبتعد عن الإهانة وعن الإيذاء المادي والمعنوي، مهما كانت الحال.

ليس هناك مبرِّر في خوف المقيمين نظامًا في هذه البلاد، إذا لم يكن هناك مبرِّر من خوف المقيمين إقامات غير نظامية، أكثر

من خوفهم من الترحيل المبرَّر، الذي هو حقٌّ للدولة، لا يعارضها عليه قريب أو بعيد.

أما المقيم إقامة نظامية، الذي يعمل في المجال الذي جاء من أجله، فهو ضيف علينا عزيز، له منا التكريم والتقدير، ما تماشى مع السمت العام، الذي تسير عليه هذه البلاد. ولن ينال منا جميعًا، حكومة ومواطنين إلا ما يستحقه من احترام، لأنه جاء ليسهم معنا في تنمية بلادنا، مع عدم نسيانه ما يناله مقابل هذا الإسهام، وهو حقٌّ له ندعو الله تعالى أن يبارك له فيه. وهذا يؤكّد – كذلك – أن نظرتنا إيجابية لهذا الوافد النظامي، سوف تترسَّخ، كذلك، عندما نتخلّص من أولئك الذين أساءوا إلى وجودهم في هذه البلاد، ثم أساءوا إلى جميع فئة الوافدين، الأمر الذي لم يكن طبيعيًا، عندما بدأنا في استقبال الوافدين.

لقد مضى زمان الطيبة الزائدة، كما مضى كذلك زمان التخلُّف والتستُّر والتسيُّب، وجميع الأساليب التي تسيء إلينا نحن المواطنين، كما تسيء إلى الدولة. وجاء زمان النظام وتطبيقه والتنظيم وتطويره. ولا التفات هنا إلى أولئك المنتفعين من ضعاف النفوس، الذين اتَّخذوا من هذه الأساليب غير الشرعية وسيلة للكسب، وأجزم أن هؤلاء من أول مَن يستجيب على المدى البعيد، وبالتالي فإنهم يشعرون بأن ما يقومون به عمل غير طبيعي وغير نظامي، هو، كذلك، غيرُ أخلاقي، ومعنى هذا أنه عمل غير شرعي. وليس منا من يصرُّ على المعصية، مهما جلبت من فوائد ماديِّة، من منظور قريب قاصر.

إننا نتعامل اليوم مع هذه المشكلة تعامُلاً حضاريًا، يترجم مدى الوعي الذي وصل إليه الجهاز المنفِّذ لهذه الحملة، وبالتالي يترجم الوعي العام الذي يتعامل من خلاله مع هذه المشكلات. وليس بيننا وبين المتخلِّفين المتستِّرين والمتستَّر عليهم والمتسيِّبين مشكلات شخصية فردية، بل هي حملة "تطهير" لأساليب غير نظامية، رأت الدولة، حكومة ومواطنين، ضرورة التخلُّص منها بالحسنى، أوَّلاً، وبمهلة معقولة جدًا، ثم بعد ذلك بقوَّة السلطان، المطلوبة على أولئك الذين لم يقابلوا الحسنى بمثلها، وستوجد فئة منهم تستمرُّ في هذا الوضع، وتحتال فيه، وهؤلاء لهم أسلوب خاص في التعامُل معهم نظامًا.

* * *